التفسير والمفسرون في سوس

الحلقة الأولى

د. عبد الرزاق هرماس

- **مقدمة :**

- **المبحث التمهيدي : علم التفسير في سوس خلال القرون المتأخرة .**

- المطلب الأول : التفات أهل سوس لعلم التفسير.

- المطلب الثاني : كتب التفسير في الخزانات السوسية.

- المطلب الثالث : التآليف السوسية في التفسير.

- المطلب الرابع : تدريس التفسير في المدارس العلمية بسوس.

- **الفصل الأول : الحسن البعقيلي حياته وآراؤه ومنهجه في التفسير :**

- **المبحث الأول : الحسن البعقيلي حياته وبيئته.**

- المطلب الأول : مجمل ترجمة الحسن البعقيلي.

- المطلب الثاني : تعليمه ورحلاته.

- المطلب الثالث : أثر الطرقية في فكره.

- المطلب الرابع : آثاره واهتمامه بطباعة الكتب.

- **المبحث الثاني : منهج الحسن البعقيلي في التفسير.**
  - المطلب الأول : التعريف بتفسيره "مقاصد الأسرار".
  - المطلب الثاني : طريقة المؤلف في تفسير القرآن.
  - المطلب الثالث : التفسير الباطني للقرآن عند الحسن البعقيلي.
  - المطلب الرابع : المصطلح الصوفي الباطني في مقاصد الأسرار".
- **المبحث الثالث : تقييم منهج البعقيلي في التفسير.**
  - المطلب الأول : مصادره في تفسير القرآن.
  - المطلب الثاني : موارده التي اعتمد عليها.
  - المطلب الثالث : التفسير الباطني عند البعقيلي في ميزان العلم.
- **خاتمة الفصل الأول**

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

أما بعد،

فغاية هذه الدراسة عن موضوع : **"التفسير والمفسرون بسوس"**.

إثارة الانتباه إلى هذا التراث الإسلامي الذي أضحت معرفته -اليوم- منحصرة في طائفة محدودة من الناس... وزاد من غربته اتجاه أكثر الدارسين المعاصرين إلى الاهتمام بالتراث الأدبي لمنطقة سوس دون الالتفات إلى التراث المتعلق بمختلف العلوم الإسلامية بخاصة علمي التفسير والحديث... والأمل الذي نتطلع إليه أن تتسامى همة الباحثين من أبناء المنطقة ومن غيرهم فيفردون موضوعات التراث الإسلامي في سوس بما تستحق من البحث والتنقيب والتتبع .

هذا ومما اقتضاه منهج الدراسة أن أقسم موضوعها إلى مبحث تمهيدي تعقبه فصول ..

ففي المبحث التمهيدي تكلمت بإجمال عن علم التفسير بسوس خلال العهود المتأخرة التي شهدت ازدهار التعليم الأهلي الذي اصطلح على مؤسساته : «بالمدارس العلمية العتيقة».

وبعد هذا المبحث سأخصص فصلا لكل من عرف عنه- من المنتسبين لهذه المنطقة - أنه ألف في : "تفسير القرآن" مع تقييم تأليفه بميزان علمي موضوعي يستمد ضوابطه من الأصول المقررة عند المفسرين الذين خدموا كتاب الله قديما وحديثا .

وعلى ذلك سيكون الفصل الأول مخصصا للحسن البعقيلي وكتابه : «مقاصد الأسرار والخفى...» الذي طبع الجزء الأول منه بالدار البيضاء عام 1354 هـ .

وستخصص فصول لاحقة -إن شاء الله- لغيره من السوسيين الذين كتبوا في علم تفسير القرآن .

على أنه يجب التأكيد بأن استهلال هذه الدراسة بشخصية الحسن بن محمد البعقيلي تـ 1368 هـ لا يعني إطلاقا أن هذا الرجل هو أحسن من يمثل المفسرين

السوسيين؛ كما أن كتابه "مقاصد الأسرار" ليست له مزية على بقية التآليف الأخرى؛ بل قد يوجد في سوس وفي غيرها من لا يرى لهذا الكتاب علاقة بعلم التفسير نظرا لأن النزعة الطرقية طغت على صاحبه حتى حشر في هذا الكتاب الكثير من المصطلحات الباطنية المتداولة بين بعض المنتسبين إلى التصوف.

نسأل الله التوفيق والرشد والسداد، وان يعلمنا ما ينفعنا في الدنيا والآخرة وأن يهدينا سبل السلام وان لا يكلنا إلى أحد سواه طرفة عين.

المبحث التمهيدي

علم التفسير في سوس خلال القرون المتأخرة

سبق للأستاذ محمد المختار السوسي تـ 1383 هـ أن عرض لجانب من تاريخ علم التفسير في سوس خلال القرون المتأخرة بعد القرن الثامن الهجري، وتساءل في سياق كلامه عن العلوم العربية في سوس وضياع أخبارها عن أسباب عدم إدراكنا شيئا من أخبار تلك العلوم خلال القرون التي تلت الفتح الإسلامي حتى القرن الثامن؟؟

وأجاب الأستاذ-رحمه الله - عن تساؤله مرجحا أن سبب عدم معرفتنا بمشاهير المفسرين والفقهاء والأدباء... السوسيين قبل القرن الثامن راجع بالأساس إلى تفريط أهل سوس في التأريخ لطبقات علمائهم..، فقال : « ... فتراءى لنا ما ربما نميل إلى ترجيحه من أن السبب الوحيد هو ما ابتلي به السوسيون إلى اليوم من عدم الاعتناء برجالهم، والتفريط دائما لا ينتج إلا الجهل المظلم، وهذا العيب لا يزال فيهم ماثلا إلى الآن كأنه ممتزج بدمائهم، مستحوذ على ألبابهم، فلولا دواع خاصة لبعض الناس لما رأينا أيضا من القرن التاسع إلى الآن إلا مثل ما نراه فيما قبل مما بين القرنين الخامس والثامن؛ فلولا التشوف للزيات لما ظفرنا ببعض صوفية سوسيين، ولولا مؤرخون آخرون غير سوسيين لما ظفرنا بآخرين من فطاحل علماء سوس إذ ذاك... كما أنه لولا دواع أخرى لأناس آخرين لما رأينا من التاسع إلى الآن شيئا...، أما التاريخ العام الذي يترامى إلى نواح شتى، فلم نحسب أنه جال قط في دماغ سوسيين إلى الآن» [1].

(1) محمد المختار السوسي، سوس العالمة ص 19 - 20.

والذي يظهر لنا اليوم بعد وفاة الأستاذ محمد المختار بسبع وثلاثين سنة، أن الأستاذ غلبته عاطفته السوسية وفضل الاحتياط لما يخطه بقلمه، فاعتقد ما انتهى إلى ترجيحه، تاركا لمن يأتي من بعده مهمة البحث والتنقيب في كل جانب من جوانب المعرفة عند أهل سوس بخاصة وأن منهجه التاريخي الذي سار عليه لم يكن يسعفه في تتبع التفاصيل (2).

المطلب الأول : التفات أهل سوس لعلم التفسير

عرف عن أهل العلم بسوس كثرة احتفالهم بالمختصرات من كتب الفقه وشروحها وحواشيها لذلك كان أغلبهم فقهاء مبرزين في الفروع والنوازل، لكن على حساب علوم أهم كالتفسير والحديث اللذين كان لا يسأل عنهما إلا المنتهي منهم؛ وليت الأمر اقتصر على العلماء السوسيين بل كان ذلك الحال سمة غالبة على أهل العلم وطلبته في المغرب والأندلس منذ أواسط القرن الثالث حتى عصر ابن عبد البر النمري ت 463 هـ الذي أحيى دراسة الكتاب والسنة بالغرب الإسلامي، لكن جهود ابن عبد البر لرد طلبة العلم إلى فقه الكتاب والسنة لم يلبث أثرها إلا قريبا من قرنين ليرجع الناس ثانية إلى المختصرات والحواشي (3).

والذي يطالع اليوم كتاب "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر يلاحظ تبرمه من معاصريه بالغرب الإسلامي لاعتكافهم على آراء الرجال وإهمالهم علم الآثار، ومما قاله في ذلك : « واعلم رحمك الله أن طلب العلم في زماننا هذا وفي بلدنا قد حاد أهله عن طريق سلفهم وسلكوا في ذلك ما لم يعرفه أئمتهم، وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم، فطائفة منهم تروي الحديث وتسمعه وقد

---

(2) انظر : منهجية محمد المختار السوسي في : المعسول ج 1 المقدمة ص : و .

(3) ومما له دلالة في هذا السياق ما لقيه الإمام بقي بن مخلد ت 276 هـ بالأندلس وذكره الشاطبي في الاعتصام ج 2 ص 348؛ وقد سار على طريقة ابن عبد البر في الرجوع إلى المصادر طائفة من علماء الغرب الإسلامي خلال القرنين السادس والسابع حيث عاش ابن السيد البطليوسي ت 521 هـ وابن العربي المعافري ت 543 هـ والقاضي عياض السبتي ت 544 هـ وغيرهم...، وكلما تقدم الزمن إلا وازداد حرص المغاربة على المختصرات في التعليم، ولنا أن نتصور أن البرادعي ت 400 هـ اختصر نوادر ابن زيد القيرواني ت 386 هـ في كتاب التهذيب، ثم جاء ابن الحاجب ت 646 هـ فاختصر التهذيب ثم جاء خليل الجندي ت 776 هـ فاختصر مختصر ابن الحاجب، وأضحى كتاب خليل الذي هو مختصر مختصر المختصر هو عمدة تدريس الفقه ومنتهاه في القرون المتأخرة!!!

رضيت بالدأب في جمع ما لا تفهم وقنعت بالجهل في حمل ما لا تعلم، فجمعوا الغث والثمين والصحيح والسقيم...؛ وطائفة هي في الجهل كتلك أو أشد لم يعنوا بحفظ سنة ولا الوقوف على معانيها ولا بأصل من القرآن، ولا اعتنوا بكتاب الله عز وجل فحفظوا تنزيله، ولا عرفوا ما للعلماء في تأويله ولا وقفوا على أحكامه، وتفقهوا في حلاله وحرامه...، بل عولوا على حفظ ما دوّن لهم من الرأي والاستحسان الذي كان عند العلماء آخر العلم والبيان، وكان الأئمة يبكون على ما سلف وسبق لهم فيه ويودون لو أن حظهم السلامة منه» (4).

هذا الوصف الذي عبر به الحافظ بن عبد البر عن حال طلبة العلم في زمنه لا يمكن أن نستثني منه علماء سوس خلال نفس العصر وبعده، فقد ظل التحصيل العلمي عندهم متوقفا على حفظ المختصرات الفقهية وشروحها وحواشيها، وهذا تدل عليه حتى وقت قريب ذخائر الخزانات العلمية السوسية وكتب الفهارس والإثبات التي جمعها طلبة العلم من السوسيين...

والحال أن طريقة التحصيل المرتبطة أساسا بحفظ المختصرات وشروحها لا تخلق في طالب العلم أي تطلع إلى الإبداع وذلك لأسباب :

– منها أن هذه المختصرات تشغل صاحبها بتتبع مبهماتها وشغل وقته في ذلك.

ومنها أن طالب العلم الذي يألف الرجوع إلى المختصرات في كل مسألة ونازلة يستغني عن النظر في كتاب الله الذي يستظهره، أما السنة فلا كلام عليها، وإذا بلغ مرتبة في العلم وتطلعت نفسه للنظر في كتب الحديث النبوي لم يتجاوز المختصرات وشروحها أيضا مثل «مختصر ابن أبي جمرة للبخاري» بحاشية محمد ابن علي الشنواني تـ 1233 هـ .

وقد نبه عبد الرحمن بن خلدون تـ 808 هـ إلى آفة الاعتماد كلية على المختصرات في العلم وانها مخلة بالتعليم فقال رحمه الله : «... وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ... وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطا على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم...، ثم فيه مع ذلك شغل كبير

(4) *الحافظ ابن عبد البر النمري، جامع بيان العلم ج 2 ص : 169 - 170.*

عن التعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت...، فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة...» (5).

اعتبارا لما قدمناه في هذا المطلب :

– هل من الممكن أن نجد بين طلبة العلم وشيوخه في هذه البيئة من يستفرغ جهده لأجل النبوغ في علم التفسير رواية ودراية ؟؟(6).

- أم أن الاشتغال بعلم تفسير كتاب الله في مثل هذا الوسط- الذي غلبت عليه حياة البادية- لا يتعدى مجرد الالتفات لالتقاط بعض اللطائف والغرائب؟؟؟

المطلب الثاني : كتب التفسير في الخزانات السوسية

للوقوف على مؤلفات التفسير التي كانت عمدة العلماء في سوس قد يكون من الأنسب جرد مختلف كتب هذا العلم في الخزانات العلمية التي كانت تابعة لبعض المدارس "العتيقة" أو في ملكية بعض الرؤساء والوجهاء والقياد في مختلف أصقاع سهل سوس والجبال المحيطة به...

لكن هذه المهمة تكاد تكون مستحيلة من الناحية العملية اليوم لسببين :

الأول : أن خزانات القواد والرؤساء قبل الاستقلال استولى عليها أفراد جيش التحرير ونقلت ذخائرها إلى بعض الخزانات العامة المعروفة، لكن الأيدي طالت هذه الذخائر بعد ذلك ثم صارت تحت تصرف من لا يفرقون بين الخشب والدرر... (7).

---

(5) ابن خلدون، المقدمة ص : 588 .

(6) أقول ذلك اعتبارا لكون أكثر طلبة العلم وشيوخه في سوس من الأمازيغ غير العرب، ونحن نعرف أن علوم الإسلام كلها في المشرق ومنذ عصر التابعين قامت على جهود العجم من المسلمين حيث ظهر من بينهم أعلام المفسرين والمحدثين والفقهاء...، أم أن في الأمر شيئا آخر يرتبط بالبيئة كما سبق للأستاذ محمد المختار السوسي أن اشتكى في "خلال جزولة ج 1 ص : 115 من أن البادية في سوس تأتي على العلم!!!

(7) من الخزانات العلمية التي تذكر في الباب خزانة القائد عياد - سيأتي الكلام عنها - ذكر الأستاذ محمد المختار أنها حولت إلى مكتبة معهد تارودانت - سوس العالمة ص 170 - ثم تفرقت ذخائر هذه الخزانة على عدة جهات، ولم يبق منها في خزانة المعهد - خزانة الإمام علي حاليا- إلا نسبة ضئيلة جدا . انظر : ابراهيم أبو الصواب ضمن "تارودانت : حاضرة سوس" ص : 141 .

السبب الثاني : إن تشجيع الدولة لما يسمونه "بالسياحة" وعدم مراقبة هذا القطاع، أدى بهواته وأغلبهم أميون إلى التنافس على جلب كل قديم يعرض على "السياح"، فنقبوا في السهول والفيافي وقمم الجبال المنعزلة ،وجلبوا من هناك الخناجر والبنادق والمخطوطات... وباعوها لكل من دفع أغلى الأثمان[8] .

واعتبارا لاستحالة الرجوع في هذا الجانب إلى ما تحتويه خزانات الكتب السوسية التي درست بما أصابها على يد الإنسان، لا يبقى أمامنا إلا الاعتماد على ما ورد عن هذه الخزانات في كتب التاريخ الحديثة "كروضة الأفنان" للاكراري وكمؤلفات محمد المختار السوسي رحمهما الله ...

ففي "روضة الأفنان" ذكر المؤرخ الاكراري في ترجمة القائد عياد بن محمد الجراري العيني تـ 1942م أنه أنشأ لنفسه خزانة على عادة القياد في مثل عصره وحرص على جمع مختلف الكتب لها، وأنفق في ذلك أموالا، وحصلت له بذلك مكانة "بتالعينت" ببني جرار، ومما قاله الاكراري في ترجمة القائد المذكور : « ...أنه أحيى مؤودة العلم في العين... فأنفق أمواله في آلاته، وحصل كثيرا من كتبه في خزانته، منها : شرح البخاري... وكذا التفاسير للقرآن كروح المعاني وروح البيان والجمل والخازن...» [9].

---

(8) وقد ساعد الجهل والغباء على مصادرة وإتلاف هذا التراث السوسي لفائدة السياحة ومما قاله الأستاذ محمد المختار السوسي حين وقف على واقع الخزائن العلمية وهو يتألم لحالها : « ... وبعد فإن أكبر آفة على خزائن البادية أن الأحفاد الجهلة يغلقون عليها صيانة لها فيما يزعمون حتى تضمحل بين الأرضة وبين وكف السقوف، فإن أنس لا أنسى ما رأيته بين آثار الشيخ محمد بن ابراهيم التامانارتي حين أجد الأوراق متناثرة في تابوت علاه الغبار طبقا عن طبق، فأخذت من الأوراق ما وجدته أثرا قيما، وعهدي بالبقايا هناك، وكذلك مررت بدار آل تيسلجيت هناك في تامانارت، فأخبرني أحدهم أن خزانة جدهم قد أغلقوا عليها حتى صارت دقيقا، قال : فقمت ـ صيانة لما فيها من أسماء الله واحتراما لها ـ فصرت أنقل فتاتها في قفة، وألقيته في بئر صبيحة يوم» سوس العالمة، ص : 175.

ومما وقفت عليه منذ زمن أن أحد تجار "البازار" بتارودانت اشترى مخطوطا فلما تصفحه وجد فيه صفحات منمقة، فعمد إلى إزالتها، وباع المخطوط المبتور مفردا، واتخذ للصفحات المنمقة إطارات من الخشب المصقول والزجاج وباعها للسياح أيضا مجزأة!!!

(9) محمد الاكراري، روضة الأفنان في وفيات الأعيان وأخبار العين، ص: 331. وروح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني " لمحمود الالوسي تـ 1270 هـ، أما تفسير علي بن محمد الخازن تـ 735 هـ فهو "لباب التأويل في معاني التنزيل"، أما الشيخ سليمان الجمل ـ من المتأخرين جدا ـ فله حاشية على تفسير الجلالين، وقد ذكر الأستاذ محمد المختار خزانة القائد عياد في " سوس العالمة"، ص : 170، ووصف صاحبها بأنه اعتنى بجمع كل ما أمكن من الكتب إليها، وكان معنياً بها حتى أن مفتاحها لا يفارق طوقه... كما ذكرها في المعسول ج 3 ص : 331 .

وفي جولات الأستاذ محمد المختار السوسي بين قبائل سوس ابتداء من سنة 1361 هـ جمع أخبار مشاهداته في كتاب "خلال جزولة" وقد تضمنت تلك الأخبار جردا لنفائس بعض الخزانات السوسية [10]، ومن بين ما وقف عليه :

1- مخطوطات خزانة "أدوز" وقد عد الأستاذ من نفائسها سبعا وتسعين مؤلفا منها في التفسير : "الأحكام الكبرى" لابن العربي المعافري تـ 543 هـ [11]، "مشكل إعراب القرآن" لمكي بن أبي طالب تـ 437 هـ [12]، جزء من تفسير ابن عطية تـ 546 هـ "المحرر الوجيز" [13]، "إعراب بعض كلمات القرآن"[14]، مؤلف في سورة الإخلاص للحسن بن مسعود الهشتوكي قاضي تارودانت[15] .

2- مخطوطات خزانة "أزاريف"، وقد عد الأستاذ من نفائسها تسعا وسبعين، منها في التفسير : "غريب القرآن" للسجستاني تـ 330 هـ [16]، "خواص القرآن" لمؤلف مجهول [17] ونسخة من أحكام ابن العربي الكبرى [18] و "النهر الماد من البحر" لأبي حيان الأندلسي تـ 749 هـ [19]) و "الوجيز في تفسير القرآن العزيز"[20] وتفسير ابن النقاش [21] ومجلد في أسباب النزول [22] .

---

(10) لم يقم الأستاذ - رحمه الله - بجرد كل كتب الخزانات السوسية وإنما اعتنى بذكر أهمها فكان" يتخطى مئات الكتب العادية"، فقال فيما اشترطه على نفسه : « ومن عادتي أنني أقف عند كل كتاب لسوسي... وعند كل كتاب غريب أو عند نسخة قيمة منه..." خلال جزولة، ج 2 ص: 78 .

(11) خلال جزولة، ج 2 ص : 51، والمراد بالأحكام الكبرى هو كتاب " أحكام القرآن" المتداول وقد طبع أول مرة في مصر بمطبعة السعادة بأمر سلطان المغرب المولى عبد الحفيظ وأعيد طبعه، وحقق مرتين...، أما كتاب " الأحكام الصغرى" للمصنف فهو مختصره وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط رقم D 274.

(12) خلال جزولة، ج 2 ص: 53 والكتاب مطبوع.

(13) نفس المرجع ج 2 ص: 56 والكتاب طبع بالمغرب وفي الشرق .

(14) نفس المرجع، ج 2 ص: 60 .

(15) نفس المرجع، ح 2 ص: 52 .

(16) نفس المرجع ج 2 ص: 80 والكتاب مطبوع ومحقق .

(17) نفس المرجع ج 2 ص: 81 .

(18) نفس المرجع ج 2 ص: 85 .

(19) نفس المرجع ج 2 ص: 86 والكتاب طبع أول مرة بهامش تفسير "البحر المحيط" بمطبعة السعادة بالقاهرة عام 1328 هـ من مطبوعات السلطان مولاي عبد الحفيظ العلوي .

(20) خلال جزولة، ج 2 ص: 87، وهو لابن عطية تـ 546 هـ .

(21) خلال جزولة، ج 2 ص: 87، وابن النقاش هو، محمد بن علي تـ 351 هـ صاحب تفسير " شفاء الصدور المهذب في تفسير القرآن" .

(22) خلال جزولة، ج 2 ص: 88.

3- مخطوطات خزانة "تيلكات" عد الأستاذ من نفائسها سبعا وأربعين، منها واحد في التفسير ضمن مجموع [23].

4- مخطوطات خزانة الزاوية اليعقوبية بقرية تاكركوست، ذكر الأستاذ محمد المختار من ذخائرها : تفسير ابن عطية تـ 546 هـ و "الدر المنثور" للسيوطي تـ 911هـ بأجزائه الحادية عشرة [24].

5- مخطوطات خزانة مدرسة تيزنيت ذكر الأستاذ أنه اطلع فيها على جزء ضخم من تفسير ابن عادل المسمى باللباب وهو الجزء الثاني من التفسير [25].

6- كتب ابن الطيفور الاسفاركيسي ذكر فيها الأستاذ "إعراب أوائل الأحزاب القرآنية" لسعيد بن بلا بن محمد بن عبد العزيز [26].

7- خزانة الحاج محمد بن أبي بكر الاقاوي وقف فيها الأستاذ على "الدر المصون في علوم كتاب اللّه المكنون" لشهاب الدين السمين الحلبي و "الكشاف" للزمخشري وعليه حواش و "اللباب" للشطيبي [27].

وفي كلامنا عن هذه الخزائن لا بد من الإشارة إلى أن عددا من مخطوطاتها جلب من مصر، وكان علماء سوس حين يحجون ينقلونها معهم من هناك لذلك كان الكثير منها بالخط المشرقي [28].

---

(23) نفس المرجع، ج 2 ص: 115 .
هذا وقد عد الأستاذ محمد المختار في الجزء الثاني من " خلال جزولة" ما اطلع عليه في رحلته الثانية عشر خزانات، ولكن لم يورد في سبع منها أي كتاب في التفسير .
(24) خلال جزولة، ج 3 ص: 160.
(25) نفس المرجع، ج 4 ص: 195.
(26) نفسه، ج 4 ص: 197 .
(27) نفسه، ج 3 ص: 56.
(28) قال الأستاذ في ترجمة محمد بن أبي بكر الاقاوي: « ... وقد حج فاشترى كتبا كثيرة من مصر في أوائل القرن الثالث عشر لا تزال مصونة وكلها مخطوطة بخط مشرقي وهي مقابلة مصححة ...» خلال جزولة، ج 3 ص: 56.
وقال أيضا عن خزانة الزاوية اليعقوبية : « ... فليتصور القارئ هذه الكتب الكثيرة المشرقية الخط كيف أوصلها الحجاج إذ ذاك، وطريقهم إنما هو بري يقطعون برقة في شهور كثيرة ... إلا أن الذي يؤسف عليه كثيرا أننا وجدنا هذه الكتب متبللة بالأمطار حتى تلاصقت أوراقها ...» خلال جزولة، ج 3 ص: 161.

لكن بالرغم من كون هذه المصنفات التي جمعتها الخزانات العلمية بسوس ليست شيئا يذكر بالنظر إلى التراث التفسيري المعروف فما هو أثر وجود هذه التفاسير في الحياة العلمية بهذه المنطقة ؟؟

الذي ظهر أن أكثر المشتغلين بالعلم في سوس خلال القرون الأخيرة ظلوا متوقفين عند المادة التي جمعها "تفسير الجلالين"، وقد ساهمت قلة اهتمامهم بعلوم الرواية والأسانيد في ترويج هذا الكتاب (29).

أما المعاصرون من "علماء سوس" فقد احتفلوا أيضا بتفسير "روح المعاني" للالوسي رغم محدودية مادته كما اعتنوا بتفسير "الجواهر" للطنطاوي جوهري ت 1940م بالرغم من سذاجة تفكير صاحبه ولله في خلقه شؤون (30).

المطلب الثالث : التآليف السوسية في تفسير القرآن

علم التفسير هو أولا رواية عن رسول الله ﷺ وعن أئمة السلف من بعده ممن اشتهروا بهذا العلم، ثم هو ثانيا نظر واجتهاد فيما يتعلق بمشكل القرآن الكريم وما يستنبط من آياته من مسائل وأحكام ...

والقسم الأول المعتمد على الرواية أساسه علوم الإسناد كما هي مؤصلة في كتب السنة والأثر، أما القسم الثاني فمرجعه ما دل عليه مطلق اللغة واللسان وما أدى إليه مقتضى المعنى ..

---

(29) قال الشيخ المحدث عبد الله بن الصديق ت 1413 هـ عن "تفسير الجلالين": « تفسير مختصر جدا، لا يفيد المبتدئ ولا يحتاج إليه المنتهي، ينساق مع الإسرائيليات ولا يحرر موضوعا كما لا يكشف عن نكتة في آية» ، بدع التفاسير، ص: 160.

(30) مما يدل عل هذا الاحتقال - على سبيل المثال - ما ذكره الأستاذ محمد المختار عن مناظرة وقعت بين يديه حول حكم التوسل والاستغاثة وترجيح المتناظرين قول الالوسي في جواز التوسل دون الاستغاثة عند تفسير الآية : 73 من سورة الحج، بالرغم من أن المسألة صح فيها أكثر من حديث وبسطتها تفاسير المتقدمين، انظر خلال جزولة، ج 1 ص: 122.
ومما يدل على هذا الاحتفال أيضا سؤال أحمد بن الرفاكي الأستاذ عن ياجوج وماجوج... فأرجأه في الجواب، ثم تعقيب الرفاكي « بأنه يعرف تفسير الطنطاوي» فأجابه الأستاذ بلباقته المعهودة « راجع فيه هذا الموضوع تر فيه ما يشفيك... » خلال جزولة ج 1 ص: 88 . وكتاب « الجواهر في تفسير القرآن» كان له رواج في أوساط القراء بالمغرب خلال عقدي الثلاثينات والأربعينات، ويكشف مضمونه عن بساطة تفكير صاحبه - وعن جهله أحيانا كثيرة - وقد بلغ به الأمر أن جعل قصاصات الصحف ومراسلات معارفه جزءا مما اعتبره « جواهر في التفسير...» .

ونحن نعلم أن صناعة الحديث التي هي لباب علم الإسناد لم يلتفت إليها العلماء السوسيون ولم يمارسوها لعدم توفر دواعي ذلك في بيئتهم حتى وجدنا الأستاذ محمد المختار يقول عن علوم الأسانيد في سوس : «شاع في المغرب من قديم قلة الاعتناء بهذا الفن، وإن لم يكن يخلو في كل وقت ممن يتعاطاه، لما امتاز به المغاربة من الانكباب على الدراية أكثر من الرواية، فكان لسوس بين أرجاء المغرب مثل هذا الوصف بعينه يقل فيه الالتفات إلى ذلك....» (31).

ولقلة اهتمام طلبة العلم وشيوخه في سوس بعلوم الإسناد راج بينهم تفسير الجلالين - كما سبقت الإشارة- بالرغم من اشتماله على الكثير من الآثار الواهية والأخبار الشنيعة من مرويات بني إسرائيل ومفتريات الكذابين (32).

أما التفسير المعتمد على النظر والاجتهاد فقد وقف شيوخ العلم بسوس عند البحث في مشكل الألفاظ فقط وصرفوا هممهم عن البحث في أحكام القرآن بعد أن شغلوا عنها بالمختصرات الفقهية وشروحها وكان منتهى نظرهم مراجعة أحكام القرآن لابن العربي إن وجد بين أيديهم .

ولا شك أن الاعتناء بالألفاظ القرآنية ومعانيها فقط راجع إلى الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه العلماء وطلبتهم وهو وسط تغلب على سكانه اللهجة الأمازيغية من ثم وجدنا طلبة العلم في سوس يعتنون أولا وقبل كل شيء بمعرفة مشكل القرآن وإعرابه(33).

وحتى مع توفر الخزانات العلمية السوسية على طائفة من المصنفات في التفسير كتلك التي سبقت في المطلب الثاني، فإن الرجوع إلى هذه الأمهات يظل محدودا في بعض الأفراد من العلماء المعدودين، وبمجرد ما يموت أحدهم تصبح هذه المصنفات

---

(31) الأستاذ محمد المختار، سوس العالمة ص : 54.

(32) ولله در الأستاذ حين قال عن هذا الموضوع: « والأحاديث الضعيفة والموضوعة تروج كثيرا في سوس، كما لا تزال إلى الآن في جميع العالم الإسلامي...» مدارس سوس العتيقة، ص: 73.

(33) قال الأستاذ محمد المختار: « ... وأما الشلحي القح الذي يحيا في مثل جبال جزولة...، فإنه قد يحفظ القرآن... وهو لا يدري حتى معنى الخبز والسمن والبصل والحصير والفأس لأنه نشأ في إقليم منكمش على نفسه... وقلما يخرج منه أهله إلا تجارا قليلين إذ ذاك وهم الذين يلمون وحدهم بالعربية الدارجة، ويبقى سواهم مرتطمين في لغتهم الخاصة، فمن حفظ منهم القرآن لا يفقه من معناه أي شيء ما لم يلم بدراسة العربية في المدارس». المعسول ج 20، ص: 279.

من نصيب الأرضة والغبار المتراكم ووكف السقوف على حد تعبير الأستاذ محمد المختار رحمه الله.

اعتبارا لما سبق كان طبيعيا أن يتوجه شيوخ العلم بسوس إلى التأليف في معاني القرآن وإعرابه فحسب، فهذا النوع من التأليف هو الذي تدعو إليه الحاجة في مثل بيئتهم التي عاشوا فيها.

وفي هذا السياق قال محمد المختار السوسي : «... في العصر الذهبي للعلوم العربية بسوس كما سمعنا كتابا يذكر حول (مشكلات القرآن) لبعض العلماء الجراريين، ولكن إن لم يعتن كثير الاعتناء بالإمعان في هذا الفن من هذه الناحية (أي التفسير للمعاني) فإنه معتنى به جدا من ناحية الإعراب...، وقد أدركنا من عوائد الطلبة بالمدارس أن يحلقوا حول أساتذتهم صباحا أو مساء، فيعربون مقدار الوقف الأول من الحزب الراتب...» [34].

ثم أضاف الأستاذ - رحمه الله - «دخلت على الأستاذ أحمد العيني في مسجد المعدر سنة 1332 هـ فوجدته يدرس التفسير دراسة حسنة، بلا تعمق فيها ولكنها مبينة مفيدة، ولروجان هذا الفن وللمواظبة عليه حافز ظاهر، وهو أن السوسي شلحي غير عربي، لا يمكن أن يهتدي لمعاني الآيات إلا بالتفسير لكلماته يتلقاه عن أربابه»[34].

وذكر الأستاذ محمد المختار من أوائل المهتمين بعلم التفسير في سوس :

- أبو يحيا الكرسيفي من أهل القرن السابع الهجري .
- الحسين الشوشاوي مؤلف "الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة"[35].

كما ذكر في الفصل الذي خصه "للمؤلفين السوسيين" طائفة من المفسرين :

- سعيد الكرمي السملالي - من أهل القرن التاسع - له "مشكلات القرآن" [36].

---

(34) محمد المختار السوسي، سوس العالمة، ص : 33-34.
(35) المرجع السابق، ص : 33.
(36) نفس المرجع، ص: 178.

– داود بن محمد السملالي- من أهل القرن العاشر- له "إعراب أوائل الأحزاب"[37].

– أحمد بن علي البوسعيدي- من الحادي عشر- له مؤلف حول القرآن [37].

– ايبورك بن عبد اللّه- من الحادي عشر كذلك- له " فتح الوهاب فيما استشكله بعض الأصحاب من السنة والكتاب"[38] .

– عالم جراري؟ - من نفس القرن- له مشكلات القرآن" [39].

– عالم من ايليغ ؟ له تفسير وقف الأستاذ على أوائله في أوراق ممزقة [39].

– الحسن بن مسعود الهشتوكي- من أهل القرن الثاني عشر- له " تفسير سورة الإخلاص"[40] .

– الحسن بن أحمد الباعمراني، له "إعراب القرآن" وقف الأستاذ على بعضه [41].

– محمد بن أحمد الأدوزي- من أهل القرن الثالث عشر- له "إعراب بعض القرآن"[42] .

– عبد الرحمن الجشتمي له "إعراب القرآن" في سفرين [43] .

– محمد بن ابراهيم اعجلي الباعقيلي له "ميم الجمع في القرآن" [44].

– الحسين الافراني- من أهل القرن الرابع عشر- له "تفسير سورة الإخلاص"[45].

– الحَسَن الباعقيلي له "تفسير مقاصد الأسرار" نشر منه جزئين في مجلد واحد[45].

---

(37) محمد المختار السوسي، سوس العالمة، ص: 180.
(38) المرجع السابق، ص: 184.
(39) نفسه ص :187 .
(40) نفسه ص: 192.
(41) نفسه، ص: 194.
(42) نفغس المرجع، ص: 196.
(43) نفس المرجع، ص: 197.
(44) نفسه، ص: 199.
(45) نفسه، ص: 203.

كما ألف الأستاذ محمد المختار حاشية على الكشاف لازالت مخطوطة... وقد عرض لدرس التفسير بسوس د. إبراهيم الوافي في "المدرسة القرآنية بالمغرب" المطبوع بعد كتابة هذه الدراسة.

هذا والناظر في هذه التآليف السوسية يلاحظ أن أكثرها كتب لأغراض تعليمية بالدرجة الأولى، غير أننا إذا نظرنا إليها وسط مختلف كتب التراث السوسي فسنجد شيوخ العلم بسوس حتى في هذا الجانب من التفسير المتعلق بالمعاني والإعراب كانوا مقلين، إذ أن ما ألفوه في التصوف - على سبيل المثال - يضاعف ما ألفوه في التفسير أضعافا كثيرة، هذا دون الكلام عن كتاباتهم في الفروع والنوازل التي تأتي في الدرجة الأولى!!!

المطلب الرابع : تدريس التفسير في المدارس العلمية بسوس

لعله من الأنسب الإشارة مبدئيا إلى مراحل الدراسة بمدارس سوس التي اصطلح عليها بعض المعاصرين "بالمدارس العتيقة" إذ ظلت هذه "المؤسسات" طيلة قرون وجهة المتطلعين إلى التكوين العلمي حتى العقود الأخيرة التي انتشر فيها "التعليم العصري" الذي تشرف عليه الدولة.

وبالرجوع إلى النظام الداخلي لهذه المدارس العلمية "العتيقة" نجده يسير على منهج يكاد يكون موحدا(46).

فلا يقبل الطالب فيها إلا بعد حفظ القرآن وبعض المتون.

ويبتدئ المرحلة الأولى بحفظ المتون الأولية في اللغة وفروع الفقه كالاجرومية وابن عاشر ...

وفي المرحلة الثانية يدرس ألفية ابن مالك بشروحها ورسالة ابن أبي زيد ومختصر خليل بشروحهما ...

---

(46) أول من تكلم عن الموضوع فيما أعلم الأستاذ محمد المختار في "سوس العالمة"، ثم عرض له بشيء من التفصيل الأستاذ أمحمد آيت بومهاوت في كتابه "منار السعود عن تفراوت المولود ومدرستها العتيقة"؛ وقبله تحدث عن جوانب من هذا الموضوع - أيضا - الأستاذ عمر الساحلي المتوكل في كتابه : " المعهد الإسلامي بتارودانت والمدارس العلمية العتيقة بسوس" ج 3-4.

وفي المرحلة الثالثة والأخيرة تتم فيها دراسة اللغة والفقه ويدرس البلاغة والأصول ثم أخيرا التفسير والحديث والفرائض.. ويكون في هذه المرحلة عالة على نفسه في التحصيل[47].

أما المصادرالمعتمدة في درس التفسير فتختلف حسب المدارس وحسب الأزمنة،

– فقد نقل الأستاذ محمد المختار عن فهرس عبد الرحمن بن سعيد الصنهاجي الزموري أن الأمهات المنقول منها هي "تفسير الرازي ومكي وابن عطية والزمخشري"[48].

– وفي بعض المدارس كان "الأستاذ" يعتمد في التدريس على تفسير "تفسير الجلالين بحاشية الصاوي.. وتفسير الخازن والنسفي بعده"[49].

– وفي مدرسة اليغ كان تدريس التفسير يعتمد "تفسير الجلالين" كما كان بعض شيوخ العلم مولعين بمطالعة "روح البيان" و "روح المعاني"[50].

– وفي السنوات الأخيرة وجدنا مدرسة "تفراوت الملود" تعتمد في التدريس على تفسير النسفي فحسب ويبقى للطلبة مراجعة بقية التفاسير المتداولة بالمدرسة كالجامع لأحكام القرآن للقرطبي وروح البيان للشيخ اسماعيل حقي واللباب للخازن،

---

(47) انظر في الموضوع :
أمحمد أيت بومهاوت، منار السعود... ص: 58-59.
محمد المختار السوسي، مدارس سوس العتيقة: نظامها وأساتذتها، ص: 80-81؛ وأظن أن الكتاب الأخير الذي نشره أحد أنجال الأستاذ محمد المختار هو في حقيقته مسودة "سوس العالمة"، ومما يزكي ذلك عندي تشابه المباحث في كلا الكتابين، ثم إن الأستاذ محمد بن عبد الله كوثر الروداني تلميذ المختار السوسي وحواريه حتى وفاته لم يورد اسم الكتاب ضمن جرده لمؤلفات شيخه في مقدمة "إيليغ قديما وحديثا" ص: ك و.
(48) الأستاذ محمد المختار، خلال جزولة، ج 3 ص: 56-57.
وتفسير محمد فخر الدين الرازي تـ 606 هو " مفاتيح الغيب"، وتفسير مكي بن أبي طالب القيسي تـ 437 هـ هو "الهداية إلى بلوغ النهاية".
(49) أمحمد أيت بومهاوت، منار السعود... ص: 48.
وتفسير عبد الله بن أحمد النسفي تـ 701هـ هو " مدارك التنزيل وحقائق التأويل".
(50) الأستاذ محمد المختار، مدارس سوس العتيقة ص: 71-72.

وتفسير القرآن العظيم لابن كثير وروح المعاني للالوسي وصفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني [51].

وإذا تجاوزنا هذا الجانب النظري فكيف نجد تدريس التفسير- عمليا- بمختلف المدارس العلمية العتيقة؟؟

- لقد كان علم التفسير في هذه المدارس من العلوم التي يختم بها الطالب دراسته، فلا يدرسه إلا بعد أن ينهي تكوينه في العربية وفي فروع الفقه، هذا إن قدر له أن يستمر في دراسته سنوات حتى يتمها .

- ثم إن تدريس هذا العلم كان يعتمد فيه أساسا على بعض تفاسير المتأخرين المختصرة كالجلالين وقد سبق الكلام عنه .

- وبحكم اعتماد منهج التدريس على تتبع قضايا الإعراب والمعنى فلا يمكن أن نتصور مضمون مادة التفسير يقترب من البحث في نصوص العلم وقواعده وآدابه ودراسة هذه المباحث هي مقدمة فهم تفسير القرآن .

- ولعله مما له أكثر من دلالة أننا حين نبحث في تاريخ الكراسي العلمية بمدرسة الجامع الكبير بتارودانت حاضرة سوس : نجد كرسي البخاري وكرسي الرسالة وكرسي مختصر خليل، لكن لا نجد كرسي التفسير...

وإذا وجد من شيوخ العلم من تطلع إلى تدريس التفسير للطلبة كان تدريسه يعتمد على سرد الكتاب في الوقت الذي كانت فيه المختصرات الفقهية تحفظ وتقرأ بتفهم وتحرير ...

---

(51) أمحمد آيت بومهاوت، منار السعود ... ص: 396.

(أ)- د. محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ج 2 ص: 412.

(ب)- سورة البقرة الآية : 253 .

وهذا يعني أن ابن الوقاد كان يحرص على أن يقرأ الكتاب من أوله إلى آخره مرة بعد أخرى، وتوفي رحمه الله عندما وقف القارئ على الآية 253 من سورة البقرة ..

(ج)- التمنارتي ، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة ص: 122، مصورة عن نسخة كلية الآداب بالرباط.

(د)- نفس المصدر.

(هـ)- نفسه ص: 123.

(و)- نفسه ص: 83.

وانظر في الموضوع: د. مصطفى المسلوتي، الحركة العلمية في الجامع الكبير بمدينة تارودانت خلال القرنين العاشر والحادي عشر، مجلة دعوة الحق، العدد 325، رمضان 1417هـ ص: 87-97.

ففي آخر القرن العاشر للهجرة اشتهر بين شيوخ العلم في سوس محمد بن أحمد ابن الوقاد التلمساني تـ 1001 هـ الذي «لم تقتصر دروسه على ما كان السوسيون يتعاطونه عادة من قراءات وفقه وقواعد اللغة وإنما شملت التفسير والحديث والأدب أيضا» (أ).

وفي عام 992 هـ دخل إلى مدينة تارودانت أبو زيد عبد الرحمن التمنارتي تـ 1060 هـ، قال : «فوجدت فيها علماء أجلاء من أجلهم شيخنا الإمام الفقيه... أبو عبد الله محمد بن احمد بن الوقاد التلمساني ... فقرأت عليه رسالة أبي محمد ومختصر خليل بتمامهما قراءة تفهم وتحرير والمختصر الفرعي لابن الحاجب إلى قرب ثلثه كل ذلك بلفظي وسردت عليه الشامل للعلامة بهرام إلى قرب نصفه وحضره بقراءة غير الكتب المذكورة... التفسير من سورة الأعراف إلى (تلك الرسل) (ب)» (ج).

وقد أشار أبو زيد التمنارتي في فهرسه "الفوائد الجمة..." إلى دروس التفسير في مدرسة الجامع الكبير بتارودانت حينما دخل المدينة وهو صغير السن ثم حين أصبح أحد علمائها بعد أن ولي التدريس والفتوى والقضاء بها .

فيذكر أنه حضر عند أبي عثمان الهوزالي بقراءة الغير درس التفسير اعتمادا على التسهيل لابن جزي (د) .

كما حضر درس التفسير عند أبي مهدي السكتاني بقراءة الغير... (هـ)، قبل أن يصبح هو نفسه مزاولا للتدريس حيث كان بعض أصحابه «يحضرون معه الدروس التفسيرية والحديثية وغيرها بالجامع الكبير بالحضرة السوسية...» (و) .

وإذا تمعنا في كلام التمنارتي وجدنا درس التفسير في تارودانت عاصمة سوس كان يعتمد على السرد والقراءة دون ما كان معهود القوم في دراسة الفقه واللغة ...

وظل هذا هو حال درس التفسير حتى القرن الرابع عشر الهجري الذي ودعناه، فقد زار الأستاذ محمد المختار في جولاته التي شملت الكثير من المدارس العتيقة ـ خلال فترة الحماية ـ المدرسة البوعبدلية، فوجد أستاذها عمر بن عبد العزيز أبا فارس « يجتهد مع الطلبة ... في تدريس المختصر والتحفة والألفية والمقامات الحريرية والفرائض، وقد سمعته يتأسف على عدم تأهل الطلبة ليشتغل معهم بالعلوم التي هي المقاصد من تفسير وحديث، ويحكي عن أبيه أبي فارس أنه يقول : إنما نحن حمر

الأمهات الصغرى فلا نكاد نتجاوزها؛ أفنفرح بالطلبة إذا هم طاروا عنا فيأتي آخرون فيبتدئون، فنحتاج إلى أن نفتتح معهم ثانيا، وهكذا دواليك فلا نتفرغ قط للعلوم العليا التي هي المقصود بمتون الوسائل» (52).

هذا واقع درس التفسير بالأمس كما وصفه الأستاذ وصفا دقيقا معبرا... أما تدريس هذا العلم بالمدارس العتيقة اليوم فقد وصفه أحد المتخرجين منها بقوله : «... وكانت عادته - أي الأستاذ - في مساء يوم كل ثلاثاء بعد تلاوة الحزب مباشرة أن يلقي درسا في التفسير بالمسجد يستغرق مدة ساعة وربع، يحضره جميع الطلبة... ويتم إلقاؤه بالعربية الفصحى ثم إعادته باللهجة الشلحية ليستفيد الجميع، وبعد انتهاء التفسير يمتحن الفقيه الطلبة بإعراب بعض الآيات المفسرة...» (53).

وإذا قارنا حصة التفسير في مدرسة "تفراوت الملود" بحصص باقي المواد لن نجدها شيئا يذكر، هذا مع العلم بأن قسما من هذه الحصة تستغرقه عملية ترجمة معاني القرآن إلى اللهجة المحلية، ورغم أن التدريس في المدرسة كان مرتبطا بمستوى الطلبة فيميز بين المبتدئين وغيرهم..، فلم يكن الأستاذ يرى ضرورة لتخصيص كل مستوى بدرس يناسبه، مما يبين لنا حقيقة تدريس علم التفسير... فلربما كان أستاذ مدرسة "تفراوت الملود" يخشى مما عانى منه أستاذ المدرسة البوعبدلية من انصراف الطلبة مبكرا فكان حريصا على درسه الأسبوعي الذي يحضره جميع طلبته...

انطلاقا مما سبق نخلص إلى أن الاشتغال بالتفسير كان شبه مهجور في الأوساط العلمية السوسية، ولعل أكبر دليل على ذلك خلو الفتاوى من الاحتجاج بنصوص القرآن، حيث اعتمد أكثر المفتين في فتاويهم على نصوص المختصرات وشروحها التي سبق أن حفظوها أثناء فترة الطلب (54).

لكن بالرغم من طغيان الوصف السابق على عامة شيوخ وطلبة العلم بسوس، فلن نعدم من بينهم بعض الأعلام الذين أخذوا عن بعض العلماء خارج سوس أثناء

---

(52) الأستاذ محمد المختار، خلال جزولة، ج 4 ص: 21.

(53) أمحمد آيت بومهاوت، منار السعود.. ص: 386-387.

(54) وانظر ما ذكره أستاذنا الحسن العبادي- حفظه الله- عن مجالس التفسير وعن الاشتغال بهذا العلم في رسالته عن "الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله العلوي" ص: 102ثم ما أورده الأستاذ بومهاوت في "منار السعود.." ص: 48.

رحلتهم إلى الحج، فقد كان هؤلاء يرفضون الاعتكاف على المختصرات والشروح والحواشي التي حفظوها، وهذه الميزة جعلتهم يبرزون على أقرانهم [55].

الفصل الأول

الحسن البعقيلي : حياته وآراؤه ومنهجه في التفسير

خلصنا في المباحث السابقة إلى أن اهتمام السوسيين بالتفسير ظل ثانويا إذا نظرنا إلى مكانة هذا العلم في مختلف مؤسسات التعليم العتيق التي اشتهرت في هذا القطر .

وتبعا لذلك فقد قلت تآليف السوسيين في علم التفسير في الوقت الذي تكاثرت فيه كتاباتهم في الفقه والتصوف والأدب ...

لكننا رغم ذلك نجد لهم طائفة من الإسهامات في التفسير وضعها بعض شيوخ العلم منهم كما سبق الكلام عن ذلك في المطلب الثالث.

لكن هذا التراث ظل - كما يعرفه المشتغلون به - متناقلا من الشيوخ إلى الطلبة عن طريق السماع والاستنساخ، حتى لما انتشرت المطابع لم يكتب لهذا التراث أن يجد طريقه إلى النشر، وفي يومنا لازال هذا التراث متداولا عن طريق الاستنساخ بآلة التصوير وكثير من ذخائره في حكم المفقود...

ولا نعلم- الآن - شيئا من إسهامات السوسيين في هذا المجال مما تداولته الأيادي مطبوعا خلا التفسير المنسوب للحسن البعقيلي، وقد اشرف صاحبه على طبعه بنفسه، لكن هذا التفسير الموسوم بـ "مقاصد الأسرار والخفى.. " لا يمكن لأي منصف أن يعتبره مثالا أو نموذجا للتفسير عند السوسيين لأن مؤلفه كتبه لأصحابه من اتباع الطريقة الأحمدية.

---

(55) انظر على سبيل المثال ما قاله محمد المختار السوسي في ترجمة الحاج أحمد الجراري لما زاره الأستاذ بتيزنيت:" ... والجراري دراكة مطلع، غريب في مطالعاته في الكتب السلفية القديمة التي طبعت حديثا فيتفوق بها في المباحثة، وكان وهابيا جريئا في إعلان الحق كما يراه لا يحترم أحدا". خلال جزولة، ج 1ص: 119؛وفي ترجمة الفقيه عبد الرحمن بن عمر العلاكي المنابهي : « ...كان عالما كبير القدر غير جامد تلقى الكتب الحديثة بكلتا اليدين.. خلال جزولة، ج 3 ص 183.

وفي هذا الفصل المخصص "للحسن البعقيلي مفسرا" سنتعرض لترجمة البعقيلي العامة مع الكلام عن منهجه في "مقاصد الأسرار" وأخيرا تقييم طريقة المؤلف في تفسير كتاب الله تعالى.

المبحث الأول

الحسن الباعقيلي : حياته وبيئته.

إن دراسة شخصية الحسن البعقيلي لا يمكن أن تكون بمعزل عن الكلام عن التصوف والصوفية بسوس خلال القرن الرابع عشر الهجري، فكثير من المنتسبين إلى العلم في هذه المنطقة عرف عنهم ارتباطهم بإحدى الطرق الصوفية الثلاثة – الناصرية أو الدرقاوية أو التيجانية – التي اشتهرت بسوس، وقد يقع أن نجد بعض من ترجم لهم ضمن شيوخ العلم منقادين لشيخ صوفي أمي يأخذون عنه "الطريقة"(56) حتى شاع في بعض الأوساط أن التحصيل يكتسب به الطالب علم الشريعة – الذي هو الفقه – والانقياد لشيخ طرقي يجعل صاحبه في مراتب "أهل الحقيقة " – أو التصوف – ومن ثم حرص كثير من المنتسبين إلى العلم الشرعي في سوس – وفي غيرها – على الجمع بين الأمرين.

هذا ومن وقف على المكانة التي يحظى بها تدريس علوم القرآن والسنة المشرفة في البيئة العلمية السوسية عرف كيف تسللت الطرقية لتشكل لباب عقيدة طائفة عريضة من طلبة العلم، ففي وسط كان الاشتغال فيه بعلم التفسير شبه مهجور – كما سبق – وكان الاهتمام بالسنة النبوية يتوقف عند سرد بعض الأحاديث لأجل التبرك في مناسبات معلومة... من الطبيعي أن تنتعش وتنتشر الدعوات الطرقية ويبرز التأليف في كرامات المتصوفة وفي أحوال المجاذيب وخوارق المنتسبين إلى الولاية... وبعد ذلك لن يكون غريبا أن نجد بين الطرقيين من يرى لنفسه من المكرمات ما لم يدركه أحد من السلف الصالح من الأجيال الثلاثة التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية.

---

(56) ذكر الأستاذ محمد المختار في المعسول ج 11 ص: 156حين أرخ للنزعة الطرقية في سوس أن « سعيد المعدري يحلق حوله –وهو أمي– زهاء أربعين عالما أثر فيهم بقوة حاله، فانقادوا له، ثم كانوا هم قادة طريقته من بعده»!!!

المطلب الأول : مجمل ترجمة الحسن البعقيلي

ولد الحسن بن محمد بن بوجمعة عام 1301 هـ ببعقيلة، فأخذ القرآن من مدرسة ايكضي بوادي الجبل من بلده كما ذكر ذلك في مقدمة كتابه :الشرب الصافي..."، ثم تنقل بين عدد من المدارس في سوس ليرتحل إلى فاس «.. فالتحق بالقائد سعيد الدمناتي وهو من قواد الرحى [57]، فشارط معه في المحلة، وكان يجول معه أينما توجه، وكان حاضرا معه لما نزع من الجيش السلاح في العهد الحفيظي، ثم كان في (أولاد بوجنون) فقطن فيها وتزوج وولد، وأثل أموالا، فبقي هناك ما شاء اللّه، ثم آوى إلى مدينة (القصر) فتزوج فاسية على يد الباشا الملالي، فأبطأ هناك ما شاء اللّه، ثم إلى (زطاط) ثم إلى (الخزازرة) حيث بقي ما شاء اللّه، وفي 1348 هـ نزل (البيضاء) فألقى عصاه واستقر به النوى» [58].

وكان طموحه إلى أن يجعل لنفسه شأنا ومكانة قد أدى به إلى التوجه للانتماء إلى الطائفة التيجانية (أو الطريقة الأحمدية) [59] فأذن له فيها الحسين بن أحمد بلقاسم الأفراني وعبد اللّه القشاش السويري (الصويري) كما ذكر ذلك في كتابه "اراءة عرائس شموس فلك الحقائق العرفانية"[60]، فكان أحد أصحابه "الأوراد"، ولما استقر به المقام بالدار البيضاء ـ المدينة القديمة ـ شيد لنفسه الزاوية التيجانية بها وسكن إلى جوارها ليصبح واحدا من مشاهير شيوخ الطريقة الذين تؤخذ عنهم .

أما عن حياته الشخصية فقد قال عنه الأستاذ محمد المختار : « ومن أحواله أنه كريم في الضيافة، ولم يكن يتكلف وهو معني بإقامة الزاوية بالطعام حيثما حل، منذ أن كان في (أبي جنون) ثم (القصر) ثم (زطاط) ثم (الخزازرة) ثم (البيضاء)...،

---

(57) "قائد الرحى" في مغرب ما قبل إعلان الحماية عسكري يرأس ألف نفر أو فارس أو رام من الجيش. "البيان المطرب لنظام حكومة المغرب" ص: 22 طبعة 1951م.

(58) محمد المختار السوسي، المعسول ج 11 ص :159 .

(59) نسبة إلى أحمد التيجاني 1150هـ- 1230هـ عاش في تلمسان بالجزائر وسافر إلى المشرق فأخذ عن بعض المتصوفة، ثم أعلن عن طريقته الأحمدية بتلمسان عام 1196هـ التي هي في جوهرها متفرعة عن الطريقة الخلواتية بالصحراء، لكن واجه أحمد التيجاني في موطنه ما جعله ينزح بطريقته إلى فاس حيث اتخذ لنفسه هناك "زاوية عين مهدي" . انظر: الفتح الرباني... ص: 6-8، والفكر الإسلامي في تطوره للدكتور محمد البهي ص: 86...

(60) حاشية جواهر المعاني(الشرب الصافي) ج 1 ص:7، وكتاب "الأراءة" غير متداول بخاصة وأن المنتسبين للطريقة يعضون على طبعته -الوحيدة- بالنواجذ.

ولكنه مع ذلك لا يفرط في ضبط ما يجول بين يديه مما يأتي به الواردون عليه، وهو خير كثير، كانت له ثلاثة أزواج مات عنهن، زيادة على أخريات متن قبله، وكان قيوما على أهله بالتربية الدينية، فيصلون ذكورا وإناثا ولأزواجه توافق والتئام...، وأولاده الذين توفي عنهم ثلاث عشر بين ذكور وإناث...» (61) .

وقد عاش الحسن البعقيلي سبعا وسستين سنة وكانت وفاته بالدار البيضاء يوم عاشر شوال 1368 هـ (62) .

المطلب الثاني : تعليمه ورحلاته

أخذ القرآن – كما سبق – من (ايكضي) ثم من (تاسيلا اوزاريف)، اما المدارس التي التحق بها فهي :

"المدرسة الالغية" درس فيها عند أبي القاسم التاجارمونتي نحو 1317هـ لكنه لم يكمل فيها السنة.

– "المدرسة البعبدلية" اخد فيها عن المحفوظ الأدوزي ولم يبطئ عنده ايضا.

– ثم كان عند الأستاذ احمد البوزوكي الكسيمي..

– ثم في (اخليج) عند الحاج علي المسفيوي..

– ثم لازم الحاج مسعودا الوفقاوي في (بووابوض)؛ فهؤلاء شيوخه بسوس.

ثم فارق (سوس) 1318 هـ والتحق بفاس حيث قضى في (مدرسة الصفارين)تسعة أشهر في رفقة محمد بن مبارك الخصاصي (63) ليتفرغ بعذ ذلك للدعوة الأحمدية التي صار أحد شيوخها .

ويظهر أن الحاج الحسن البعقيلي لم ينه دراسته حتى يتخرج من إحدى المدارس العلمية بسوس إذ لم يتم في أي منها عاما كاملا، والحال أن الطلبة لا يتخرجون إلا بعد ست سنوات من الدراسة على الأقل ومنهم من يستمر في الدراسة عشر

(61) *المعسول، ج 11 ص :164.*
(62) *المرجع السابق، ج 11 ص :168 .*
(63) *نفسه، ج 11 ص : 159.*

سنين[64]..، وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما ذكره الأستاذ محمد المختار فإن الحسن البعقيلي لم يقض في تنقلاته بين مختلف المدارس العلمية السوسية إلا أقل من سنتين : إذْ افتتح دراسته عند الأستاذ المافاماني ثم انتقل إلى المدرسة الالغية 1317 هـ ليغادر سوس 1318 هـ.

تبعا لما سبق لم نجد في ترجمته عند الأستاذ محمد المختار كلاما عن إجازاته العلمية التي كان طلبة العلم يختمون بها دراستهم على عهده.

لكننا بالمقابل نجد له عند المختار السوسي، وفي كتابه "الاراءة" و "الشرب الصافي" إجازات لبعض شيوخ الاحمدية وهذا ما كان يبحث عنه بالفعل ...

فقد أجازه الحسين الافراني لما كتب إليه يطلب منه الإذن في إعطاء الأذكار الاحمدية.. وأجازه علي الاسيكي كذلك.. والكلام في هذا الجانب بسطه بأسلوبه الصوفي في كتابه "اراءة عرائس شموس فلك الحقائق العرفانية" وليست هناك حاجة لشغل القارئ بتفاصيله لأنه إنما يبحث فيه من سلك طريق الفقراء المنتمين إلى الطائفة التيجانية...

فنخلص مما سبق إلى أن المترجم له لم يظهر انه أنهى دراسته العلمية في إحدى المدارس داخل سوس أو خارجها، لكن طموحه قاده للحصول على إجازة مشايخ الاحمدية ليصبح بعد ذلك أحد أعمدتهم وقد عبر عن ذلك بقوله : «تلقيت على سبيل الطريقة الاويسية من حضرة بحر روحانية الشيخ رضي اللّه عنه الإجازة المطلقة، وهو مضمن قوله لنا رضي اللّه عنه في عالم الخيال : أذنتك في طريقتي، فقبلت صدره الشريف، ثم قال لي : أذنتك في طريقتي بنية الاسم الاعظم في جميع الأذكار منها، ثم قال : أنت رئيس العلماء وسيدهم وإمامهم ...» [65].

(64) انظر: منار السعود عن تفراوت الملود.. ص : 61.
(65) البعقيلي، الشرب الصافي على جواهر المعاني(حاشيته) ج 1 ص : 182.

المطلب الثالث : أثر الطرقية في فكره

ربما توقع الأستاذ محمد المختار السوسي رحمه الله أن يهاجمه فقراء الاحمدية إن هو تكلم بشيء في شيخهم، لذلك حرص على الترجمة له بمقتطفات كلامه في مختلف كتبه، وقد صادف وقت طبع المعسول 1380 هـ 1960 م فترة انتشار الطريقة التيجانية في سوس بعد أن مكن لها قبيل استقلال المغرب [66]، ولو افترضنا وقعت ترجمة الحسن البعقيلي في "روضة الأفنان " للاكراري لاصطبغت بلون آخر لانجده عند الأستاذ محمد المختار [67].

لذلك لما أراد صاحب "المعسول" أن يبين فكر المترجم له ونهجه في التصوف عقد مبحثا لمقتطفات "من آثار قلمه " جمع فيه من كلامه ما يدل على عقيدته ومكاشفاته ورأيه في العلم، واستغرقت هذه المقتطفات سبعة عشر صفحة ختمها الأستاذ محمد المختار بقوله : «سقنا كل ما تقدم على طوله، ليبين متجه المترجم في التصوف، لأننا ألفنا ألوانا مختلفة في صفوف أهل التصوف، فعوض أن يصدر قلمي أي حكم، أعرض على القارئ أمثال هذه الآثار التي يودعها كاتبها مبدأه وخلاصة رأيه، ليستطيع من يدرس المترجم أن يصدر هو الحكم عليه بنفسه، وهذا ما نفعله كثيرا في كتابنا هذا، والله الموفق والهادي للصرلط المستقيم» [68].

ولعل ما يظهر أثر الطرقية على فكر الحسن البعقيلي ما خطه بيده في حاشيته على "جواهر المعاني" حيث ظهر معتقده بكون الطريقة الأحمدية تلقاها أحمد التيجاني المتوفى 1230 هـ 1815 م بالإذن التام المطلق من الرسول ﷺ يقظة لاَ مَنَاماً، مشافهة بلا واسطة"!!! [69] .

---

(66) قال الأستاذ محمد المختار عن "الأحمدية" في زمنه : «... ثم لم تزل تنتشر بين علية الناس فقط خصوصا الطلبة والرؤساء والأغنياء حتى صارت تمتد جذورها إلى بعض الدهماء فتؤسس لها الزوايا شيئا فشيئا حتى صارت الآن 1380هـ أكثر هذه الطرق انتشارا في سوس، وقد أثارت أيضا هذه الطريقة يوم ظهرت في سوس زوبعة ضدها ...» المعسول ج 11 ص:157.

(67) أما ترجمة الحسن البعقيلي عند أكثر تلاميذه من الأحمديين فإنها مجموعة من الروايات عن :""كرامات" و "أحوال" قد ينفر منها من لم يسلك طريقته..

(68) محمد المختار : المعسول، ج 11 ص: 186 ؛ والصفحات التي نقلها الأستاذ من الشرب الصافي بين 182-207.

(69) البعقيلي، الشرب الصافي... ج 1 ص:182.

إن مما تلقاه "صلاة الفاتح" التي هي جوهرة عظيمة، اشتملت على الخير من حيث هو : اشتملت على علوم الرسل واللوح المحفوظ وعلم الكتب المنزلة، فمنها يستمد كل كتاب وكل نبي وولي..."!!! (70).

ثم لما علم صاحب هذه "المعتقدات" ما يمكن أن يواجه به مما هو معلوم من دين الإسلام بالضرورة، وجدناه يسرع إلى إغلاق الباب على غير السالكين لطريقته قائلا : «... فمن كان منا فإنه يشاهدها من حيث برزت، وإلا سلم أو لا يسلم فإن الله غالب على أمره، فإذا علمت أنها ليست مما يخوض فيه المتكلمون ولا الأصوليون ولا أهل الاجرومية النحويين الذين قنعوا بمعرفة اعراب قام زيد...» (71).

هكذا يؤدي غياب العلم الشرعي - الذي يكسبه الإنسان بالكد والتحصيل - إلى معتقدات شديدة الغرابة، وإذا اجتمع غياب هذا العلم مع طموح لا حد له في المكانة والمقام أنتج ذلك كله نوعا "الهوس الطرقي" الذي لا يجد فضاءه المثالي إلا في الزوايا والتكايا حيث يجتمع "الفقراء" الذين لا تمييز عندهم بين الأمي وبين غيره، بل قد يكون هذا الأمي إن نجح في ادعاء كرامات معينة - كمجالسة الشيخ... - ممن يجب اتباعه والانقياد له ...!!!

المطلب الرابع : آثار الحسن البعقيلي واهتمامه بالطباعة

بلغت مؤلفات الحسن البعقيلي التي طبعها واحدا وعشرين وقد عرض لها الأستاذ محمد المختار في "سوس العالمة" (72)، وذكر أهمها داود الرسموكي في قصيدة مدح بها البعقيلي حيث قال :

" فسل عنه إن جهلت مقدار فضله تآليفه تنبيك ما كنت تجهل

---

(70) *المرجع السابق ج 1 ص:185 ؛ وممن ترجموا لحسن البعقيلي لكن اقتصروا على نزعته في التصوف: علي بن الحبيب السكرادي الجراري في "تحلية الطروس في رجالات سوس".*

(71) *الشرب الصافي ج 1 ص: 199؛ وقد بلغت مكانة الحسن البعقيلي عند الأحمديين أن وجدنا داود الرسموكي يقول في مدحه (المعسول ج 11 ص :167):*

إلى بابك الأسمى جثت ركائبي فتجري على متن الرجاء وترقل
فيا سعدها ان انثنت بمرادها لديك وإلا فالشقاء المعجل
وحاشا نداك أن يئوب نزيلكم بغير المنى، ومن سواكم يؤمل

(72) *محمد المختار السوسي، سوس العالمة ص : 208.*

(اراءته) يكفي المريب (زلالها) و(اشرب الصفا؟) (ترياق) من هو أجهل
و (رفع الخلاف) لا يغادر ريبة بـ (تفسيره) والفضل أوسع وأجزل
كذلك (اعلام الجهول) بـ (كشفه الحقائق) ما أحلاه من متأمل؟
وحشى على متن (الجواهر) مثل (نهـ جه للجلال) ما يعل وينهل
وللشرفا(تبيينه)متلألئى ك (تحفة أطفال) علاه التسلسل
وعرج على الإشفاق) إن كنت مشفقا على أمة بالاعتصام تسول
ووجه رعاك الله همة راغب إلى (سوق الأسرار) لمن يتململ" [73]

وقال الأستاذ محمد المختار في "سوس العالمة" :

"له (تفسير القرآن) مطبوع (إيضاح الأدلة بأنوار الأئمة) مطبوع، (رفع الخلاف والغمة فيما يظن به اختلاف الأئمة) مطبوع، (سوق الأسرار) مطبوع (الإشفاق على مؤلف الاعتصام) مطبوع، (ترياق من فسد قلبه ومزاجه) مطبوع (أعلام الجهال بحقيقة الحقائق) مطبوع، (الزلال الأصفى) مطبوع (حواش على جواهر المعاني في التيجانية) موجود، (اراءة شمس فلك الحقائق) موجود، (انساب شرفاء سوس) مطبوع [74].

ومن وقف على هذه المؤلفات والرسائل علم أن صاحبها قد أشرب الطريقة الأحمدية في قلبه إذ كل مؤلفاته تخدم غاية واحدة هي طريقته ، فلا نجد فيها أثرا إلا للتصوف كما تصوره مشايخ التيجانية... [75].

هذا وقد وجدنا الأحمديين خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للهجرة يؤلفون في مناقب شيخهم أحمد التيجاني وفي سيرته وفي الأوراد التي يؤذن بها للفقراء وأخيرا في الدفاع عن الطريقة ضد خصومها [76].

---

(73) المعسول، ج11 ص: 166.

(74) الأستاذ محمد المختار، سوس العالمة، ص:208.

(75) قال داود الرسموكي في رثائه بعد وفاته 1368هـ (المعسول، ج 11 ص: 169) :

ومن بعده يشفي بحسن بيانه ذوي الجهل ان غمت عليهم دلائل
ومن بعده يقري القلوب حقائقا أبت أن تنالها الفحول الأوائل
ومن بعده يحمي الطريقة مخلصا بسيف يراع تتقيه المناصل

(76) انظر على سبيل المثال "الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المريد التيجاني".

ولا يكاد الأحمديون يؤلفون في شيء مما يسمونه "علوم الظاهر" من تفسير وحديث وفقه وأصول دين لأنهم استغنوا عن ذلك بأذواقهم و "إراءاتهم" ومكاشفاتهم، لكن الحسن البعقيلي خرج عن نهجهم وأراد أن يضع لهم تفسيرا خاصا بهم سماه "مقاصد الأسرار والخفى وجواهر المرضية والكاملة في نهاية الاخفى" فجاء كتابه اسما على مسمًّى ليس فيه من التفسير أو من العلم الشرعي شيئا، ولكن فيه من "الأسرار" و "الخفى" و "الجواهر" ما لا يستسيغه إلا "هيام" الفقراء (77).

هذا وقد مكنت المداخيل الوفيرة التي يأتي بها الواردون على الزاوية التيجانية بالمدينة القديمة - في الدار البيضاء - من تمويل الزاوية وطبع مختلف تآليف الحسن البعقيلي، فقد طبع من مؤلفاته واحدا وعشرين في مطبعته الخاصة "بدرب غلف" كما طبع أيضا عددا من الكتب السوسية على أن جميع كتبه التي نشرها عبارة عن رسائل لطيفة عدا "مقاصد الأسرار" و "الشرب الصافي على جواهر المعاني".

المبحث الثاني

منهج الحسن البعقيلي في التفسير

ذكر أبو علي الحسن بن محمد بن أبي جماعة البعقيلي أنه ألف "مقاصد الأسرار والخفى..." "بداعية تبيين الأحكام الشرعية عند شرح متن القرآن الكريم نفعا لمن عسى أن يرزق فيه حسن ظن بمؤلفه الضعيف... فجدير لمن اعتنى به وأعان عليه أن يرزق من الله الإعانة والقبول وأن يكرم بأسرار مباني الأدلة القاطعة وأن يهمل الأدلة الاقناعية بقواطع نصوص كلام ربنا الكريم .."(78).

فظاهر من كلامه في مقدمته أن تفسيره في "بيان الأحكام الشرعية" لكن على طريقة الصوفية الواقفين على "أسرار مباني الأدلة".

---

(77) ذكر الأستاذ محمد المختار رحمه الله في ترجمة الحسن البعقيلي (المعسول ج 11 ص: 186) « إن من أعظم مزايا المترجم أنه يشتغل دائما بقلمه في العلوم كلها: فقها وأصولا وتاريخا وتفسيرا"، وأظن أن الأستاذ لم يقف إلا على بعض كتبه كالاراءة والحاشية على الجواهر واعتمد فيما ذكر على ما نقل إليه والله أعلم..

(78) الحسن البعقيلي، مقاصد الأسرار والخفى ج 1 ص: 2.

المطلب الأول : التعريف بالكتاب

اشتغل الحسن البعقيلي في تأليف "مقاصد الأسرار" خلال عام 1353 هـ [79]، وطبع الجزء الأول والثاني منه في عام 1354 هـ حيث صدرت طبعته الأولى عن المطبعة العربية "بدرب غلف" بالدار البيضاء، وهذان الجزءان المطبوعان ينتهيان عند كلام المؤلف عن قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **أفتطمعون أن يومنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله..** ﴾ [80]، وليس هناك دليل على أن المؤلف أكمل التفسير وقد توفي كما سبق 1368 هـ .

والذي يقرأ الكتاب يصادف الجزء الأول قد استغرقته مصطلحات أهل التصوف والكلام عن العارفين ومراتب العلوم عند المتصوفة، رغم أن هذا الجزء تضمن - حسب المؤلف - تفسير سورة الفاتحة وبعضا من سورة البقرة.

أما الجزء الثاني فلم يخرج عن الوصف السابق إلا أنه لما عرض لقوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾ [81] انتقل إلى الكلام عن طائفة من العبادات مرجحا ومحتجا لما نقل عن شيخ الطريقة التيجاني في بعض الفروع .

والقارئ "لمقاصد الأسرار والخفى..." قد يصدم بما حوته صفحات هذا "التفسير" بخاصة إذا كان من الذين ألفوا مراجعة كتب التفسير الأخرى، فلا يجد فيه تفسيرا بالأثر من حديث مسند أو مرفوع أو موقوف... كما لا يجد فيه مباحث الغريب والمشكل وغير ذلك مما له علاقة بالتفسير اجتهادا وبالرأي... وكثيرا ما كان المؤلف يسبح في سياحات لا علاقة لها بسياق القرآن بقدر ما هي مرتبطة بحالات الوجد التي يكون فيها .

لذلك لا يستطيع القارئ أن يربط بين الآية وبين تفسيرها في "مقاصد الأسرار" لأن وجه ارتباط كلام المؤلف بالآية من الأسرار التي لا يمكن أن يقف عليها إلا من يتكلم في "علم الأحوال والمقامات".

---

(79) انظر التواريخ التي ضمنها المؤلف في كتابه ج1 ص :168 ، ج 2 ص10 و 68.
(80) سورة البقرة الآية: 75.
(81) سورة البقرة، الآية: 43.

المطلب الثاني : طريقة المؤلف في تفسير القرآن

معتمد المؤلف في التفسير ما يصطلح عليه "بالكشف" وهي أسرار لا تؤخذ بالتعلم أو بالرواية المسندة بل "بمعاينة" الصوفي لذلك.

قال المؤلف في حاشيته على "جواهر المعاني" عند كلامه عن قوله تعالى : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبي** ﴾ [82]..."فهذا الذي وصله كشفنا، فلا اكتب إلا ما عاينته وحققته، لا بدراسة ولا بتعليم، فهذا لا مجال فيه للرواية على كيفية مخصوصة، فالرواية للأحكام الشرعية، والأسرار بالكشف".

ويؤكد على هذا المصطلح الصوفي في أكثر من مناسبة ضمن " مقاصد الأسرار" حتى يوقن القارئ بأن "طريقة الكشف" هي لباب علم تفسير القرآن عنده. فهو يقول في كتابه : "فإني غربلت لك الحقائق بأدلة العيان والكشف من الدليل الشرعي، فقد أزلت لك بعض الإلباس ليتم إيمانك بعصمة الأنبياء.."[83]، وقال في مناسبة أخرى : "... ثم إني أحببت بعد أن بينت ما هو عين الحق بالكشف من الدليل وأن القرآن إنما نزل تعظيما لخاصته الأنبياء والملائكة والأولياء.."[84].

وللوقوف على مراد الحسن البعقيلي فيما يصطلح عليه "بالكشف" لا بد من استحضار الدوافع التي حفزته لكتابة تفسيره في سياقها العام .

1- فهو- كما سبق- في مقدمته يريد "بيان الأحكام الشرعية عند شرح القرآن"[85].

2- ثم إن ما يعتبره عامة المسلمين "أحكام القرآن" إنما هو- عند المؤلف- ظاهره الذي يتجلى للعامة، أما أصحاب الأحوال فإنهم ينظرون إلى باطن القرآن أي "أسرار مباني الأدلة" [85]. وفي هذا السياق قال البعقيلي وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ **ملك يوم الدين** ﴾ : "... فالشريعة أم، والطريقة بنت، والحقيقة ذوق ومراقبة ومشاهدة وعيان،

---

(82) سورة الأحزاب، الآية: 56؛ وانظر: "الشرب الصافي.. على جواهر المعاني" ج 1 ص: 188-189.
(83) البعقيلي، مقاصد الأسرار ج 2 ص: 35.
(84) البعقيلي، مقاصد الأسرار ج 2 ص 44 .
(85) المرجع السابق، ج 1 ص: 2 .

فالشريعة قشر لوز، والطريقة لب، والحقيقة أكل وذوق، فصاحب مقام الشريعة تابع للعلم، والطريقة راكب عليه، والحقيقة آكل له فصار له حالا..." (86).

3- ثم إن مجال فهم القرآن متسع على مقتضى تعدد علوم القرآن (87) حتى استحق أن يصفه الحسن البعقيلي بقوله : «... بيد أنك قد علمت أن القرآن بحر اضطربت أمواجه وعظمت أوديته وسحائبه فيرد علمه إلى الراسخين في أصول القران» (88).

4- والراسخون هؤلاء هم "الأولياء" علماء الباطن من المتصوفة "الذين أكلوا زبدة الحق وصار لهم الحق حالا" (89) وهم "أهل الصدق والتمكين والرسوخ في الأدلة الشرعية، فإنهم رضي اللّه عنهم غاصوا في بحار الشريعة حتى استخرجوا منها مثل طرائق الأنبياء، فعبد اللّه فيها على أنفاسهم المستنبطة من أنفاسه ﷺ، فالطرق من أفعاله وأحكامه وتقريراته وأحواله، فهو ﷺ كوثر الخيرات والقربات..."(89).

نخلص من النصوص السابقة إلى أن تفسير الحسن البعقيلي " مقاصد الأسرار والخفى وجواهر المرضية والكاملة في نهاية الاخفى" اعتمد فيه على ما اصطلح عليه "بالكشف" الصوفي الذي يأتي ممن وصل درجة "القطبية" فأصبح يتلقى ما يفسر به كتاب اللّه مباشرة عن الأنبياء دون حاجة إلى رواية، والكشف الصوفي بهذا المعنى هو عند الطرقيين بمثابة القول "المرفوع" إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يضيفه إليهم أقطاب المتصوفة في كل زمان ولو كان بينهم وبين النبي آلاف السنين!!!(90).

ولا شك أن ادعاء هذا "الكشف" يهدف إلى غايتين :

الأولى إخضاع الأتباع بالانقياد لصاحب هذا الادعاء، فيتلقون بالقبول كل ما يخبر به مما يرده الشرع ويرفضه العقل ..

---

(86) نفس المرجع، ج 1ص: 15-16.

(87) يذكر البعقيلي في مقاصد الأسرار ج 1 ص: 30 أن علوم القرآن «مائة ألف علم وستة وستين ألف علم تحت كل حرف منه، فكل هذه العلوم صراط مستقيم...» وهذه الدعوى قديمة درج على ترديدها المتصوفة كلما أرادوا أن ينسبوا إلى تفسير كتاب اللّه كشفهم وإراءاتهم!!! ونجدها عند المؤلف في كتاب "الإشفاق" ص: 4 حينما أراد أن يرد على الشاطبي نسبته المتصوفة إلى أهل البدعة...

(88) البعقيلي، مقاصد الأسرار ج 1ص: 32.

(89) نفس المرجع ج1 ص: 30 .

(90) قال البعقيلي في "الاشفاق" ص: 3 : «فالعاملون العالمون الواعون في جنة الشريعة العليا كالصحابة ومن اهتدى بهديهم ممن علم نفسه أولا بأنه لا يفهم شيئا إلا ما أوصله له النبي ﷺ ».

الغاية الثانية الاحتراز من ابطال العلماء لمقالاتهم المناقضة لصحيح المنقول وصريح المعقول، فلما أيقنوا أن علماء الشريعة سيواجهونهم بالأدلة ادعوا أن ما جاءوا به هو مما تلقوه بالكشف، وحجروا على غيرهم الكلام في الأحوال التي ادعوها بهذا الكشف(91).

المطلب الثالث : التفسير الباطني للقرآن عند الحسن البعقيلي

قال البعقيلي في حاشيته على "جواهر المعاني" :

« ... فقد علم الله لنبيه ليلة الإسراء ثلاثة علوم (92) :

علم الشريعة بأنواعه الثلاثة : قرآن وحديث وحديث قدسي، فقد بلغه، ومن مبلغه تعوم العلماء إلى قيام الساعة... وهذا الذي انسد بابه وختم برسول الله ﷺ (93).

والعلم الثاني علم الباطن... فإنه ليس علما مكلفا به فإظهاره لأهله لا غير...، فله يقول علي كرم الله وجهه مشيرا إلى صدره : إن هنا لعلوما لو وجدت لها حملة، فهو المتوارث عند الأولياء، وهو أسرار الشريعة فقط... فخفي عن أهل الأحكام الظاهرة فسمي باطنا، فعلماء الظاهر لا يشمون لعلم الباطن رائحة، ماداموا في مقامهم فليعذروا نفوسهم، فإنهم ما كلفوا بمعرفته، وليسلموا لعلماء الباطن ما احتمله الشرع .

وعلمه الله علما ثالثا وهو باطن الباطن منه إليه بلا وساطة فاختص به، فلم يجز له أن يبلغه إلا للقطب المكتوم الذي هو خليفته، وكملت فيه ذاته وأسراره، فلم يحز أحد سر رسول الله ﷺ إلا هو ، فلم تكتمل صورته الظاهرة والباطنة في أحد من جميع أفراد خلق الله إلا فيه، مزية لا غير، فصلاة الفاتح من قبيله...، وأما نحن فقد امتصصناه من ماهيته رضي الله عنه فصار لنا حالا، وإنما يجب الكتم فكتمنا...،

---

(91) قال البعقيلي في مقاصد الأسرار ج 2 ص : 6: « فكل من لم يصل درجة الصديقية العظمي لا يحل له أن يتكلم في مراتبهم إلا بتصديق ما ذكره الصديقون من الأنبياء والأقطاب والأفراد، فنحن معشر المقربين الصديقين لنا اتصال بمراتبهم للاشتراك بمراتبهم في مطلق الصديقية...».

(92) هذه الدعوى لا نجد لها أصلا في مختلف أحاديث الإسراء التي أخرجها أئمة السنة النبوية المشرفة!!

(93) المعلوم من الدين بالضرورة أن القرآن أنزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا قبل وقوع الإسراء ثم نزل منجما خلالَ فترة النبوة قبل وبعد حدوث الإسراء والمعراج، وبانتهاء النبوة انتهى الوحي، والنصوص في ذلك صَريحة لا يمكن الالتواء عليها بمثل هذه الادعاءات...

فإن الله أكرمنا على يد هذا الشيخ العظيم بالعلوم الثلاثة...، فلما خصنا الله بالعلم الثالث فضلا منه، رأينا به حقيقة الشريعة والطريقة" (94).

لقد اقتضت ضرورة البحث إيراد هذا النص رغم طوله - مع حذف بعض فقراته اختصارا - حتى يتبين للقارئ مذهب الحسن البعقيلي بخصوص الاعتقاد بأن للقرآن ظاهرا وباطنا، هذا وقد درج غلاة المتصوفة مع غلاة أهل التشيع على تبني هذه الدعوى منذ القرن الثاني للهجرة حتى لا يحاجوا بالنصوص من الكتاب والسنة، لكن الذي يظهر من كلام البعقيلي أنه قسم ما سماه "علم الباطن" إلى قسمين الأول منها لعامة الأولياء من المنسوبين إلى الباطنية والتصوف، والقسم الثاني "باطن الباطن" خاص بدعاة الطريقة "الاحمدية" دون غيرهم.

والاحمديون بهذا "العلم الثالث" يفسرون القرآن من غير رواية ولا دراية لأنهم إنما يستمدون ذلك من ذاته ﷺ مباشرة!!؟

قال البعقيلي : «... فالاهتداء محصور في كليات وجزئيات الشريعة، فلا يحيط بالسنة إلا من تغلغل في مدلولات القرآن المبين بالحديث... كالعارفين المقربين المستمدين من ذاته ﷺ، فهو المرآة لحقائق القرآن الكريم، فمن غابت عنه حقائقه ﷺ دقيقة واحدة حرم عليه أن ينكر ما استنبطه المجتهدون..» (95).

ومن أمثلة التفسير الباطني عند الحسن البعقيلي :

ما أورده تفسيرا لقوله تعالى : ﴿ **وانزل من السماء ماء** ﴾ (96) قال : «فالمطر ماء يخرج من تحت العرش فينزل من سماء إلى سماء حتى يجتمع في سماء الدنيا...، فالكشف يقتضي أن البحر المحيط الذي خلقت الدنيا منه ووضعت عليه كالحصيرة فخرج (غظيمه) تحتها، فتخرج ريح بالقدرة فتضرب البحر فيعلو في كل جهة حتى يجتمع فوق كرة الأرض في وسطه وهو البحر المكفوف..» (97).

---

(94) البعقيلي، الشرب الصافي على جواهر المعاني ج 1 ص: 199-189 .
وانظر كلام المؤلف عن هذا العلم الثالث الذي ادعى المؤلف أن "أحمد التيجاني" . اختص به دون غيره من الخلق في :
"ترياق من فسد قلبه ومزاجه" ص: 17 .
"سوق الأسرار إلى حضرة الشاهد الستار" ص": 61...
(95) البعقيلي، الإشفاق على مؤلف الاعتصام، ص: 4-5.
(96) سورة البقرة، الآية: 22 .
(97) البعقيلي، مقاصد الأسرار ج 1 ص: 105.

وفي قوله تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ [98] قال البعقيلي : « كوثرية الأسماء الإلهية من أسمائه الحسنى واسمه الأعظم وأسمائه النازلة التي خلقت بها الحقائق والعالية التي وضعت على مراتب حقائق ملكه تعالى...» [99].

وفي قوله تعالى : ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ [100] قال : «لم يرد نص على التعيين، فأدرك الكشف التين، ولم يتعلق بمعرفتها إيمان، وهي شجرة أرضية فهي التي تسهل، والاسهال تغير ولا تغير لنعيم الجنة أبدا...» [101]، وقال أيضا : « فامتثل آدم فأكل الشجرة شجرة الإسهال، شجرة التين النابتة من الدنيا فجذبته إليها بإذن من اللّه من غير عصيان...» [102].

ومما وصل إليه الحسن البعقيلي في تفسيره بطريقة "الكشف" أيضا أن معاصي العارفين و"الأولياء" لا تستوجب الإثم!! ففي كلامه عن قصة آدم قال : « ... فالمفتوح عليه إذا عاين اللوح مثلا ورأى معصية مؤقتة مقدرة عليه من غير شرط ولا تعليق وجب عليه فعلها ممتثلا للإرادة...» ثم قال : « فالعامي مَنْ لا يتعدى طوره، فإنه يعلمه ربه بمراده، فلا يحل له اقتحام منهي وإلا استوجب حقيقة نكال ربه ان لم يتفضل عليه...»[103]. وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ **وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به** ﴾ [104]، اعتبر ظاهرة الوحي نوعا من "الفتح الصوفي" " ... فالثقل الذي عليه (أي النبي ﷺ) في أول رسالته.. هو أني فتحت له قبل وجوده في أطوار تقلباته في الساجدين الفتح الأكبر... وهو المعرفة باللّه...، وفتحت كذلك الفتح الأصغر وهو العلم المتعلق بنفسه وبالناس وبحقائق ملكي...، فلما وصل في عمره واحدا وخمسين سنة رددت إليه الفتح الأصغر وهو عين الإسراء، فعلمته علما متعلقا بالأولين والآخرين... فجمع بين الشريعة والحقيقة في كل شيء فهذا الفتح هو الشرح في كلامي ورفع الوزر...[105].

---

(98) سورة البقرة، الآية: 31 .
(99) البعقيلي، مقاصد الأسرار، ج 1 ص: 132 .
(100) سورة البقرة، الآية: 35.
(101) البعقيلي، مقاصد الأسرار: ج 1 ص: 15 .
(102) نفس المرجع، ج 2 ص: 13 .
(103) نفسه، ج 2 ص: 13-14 .
(104) سورة البقرة، الآية: 41.
(105) البعقيلي، مقاصد الأسرار ج 2 ص: 52 ، والإشارة إلى سورة الانشراح في مفصل القرآن.

ومن التفسير الباطني عند البعقيلي أن الملائكة طائفة من العارفين، ولهم في زماننا إمام قطب يتبعونه [106].

ومن هذا التفسير الباطني أيضا تلك "الكشوفات" التي علق بها البعقيلي على حروف القرآن وخصص لها فصلا كاملا ضمن" تفسيره" لسورة الفاتحة [107]... ومثل ذلك كثير في "مقاصد الأسرار والخفى"، وبعضه لا يفيد أي معنى في اللسان العربي الذي ألف به هذا "الكتاب"!!

المطلب الرابع : المصطلح الباطني في "مقاصد الأسرار"

هذه المصطلحات كثيرة لا يفهم معناها إلا المؤلف الذي كنى نفسه في غلاف تفسيره "بعلامة الزمان قطب مركز دائرة العرفان"[108]!!

ففي سياق كلامه عن قول اللّه تعالى : ﴿ **ملك يوم الدين** ﴾ [109] قال : «... فإذا علمت أن اللّه هو الملك وغيره ملكه استعظمت جلاله مع قطع النظر عن نفسك... فإنك مضطر هباء هالك، وجود مبني على الجواز والعدم وهو هيولاك ومعينك...» [110].

وفي قوله تعالى : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء** ﴾ [111]، قال البعقيلي في تفسيره : « ... فالملكوت والجبروت والملك عوالم نشأت من أجساد المومنين في علم اللّه فهي الأفلاك والكواكب والشموس والأقمار، فمنبت الكون من عرقية روح سيدنا محمد الإنسان الكامل اضطربت فصارت بحرا، فخلقت الأرض من قوة الماء المتموج المزبد باللّه، فخلقت السماوات من بحار الماء الفائض من عرقيته ﷺ » [112]، وهذا التأويل لقضية خلق الكون نابع بالأساس من اعتقاد الحسن

---

(106) المرجع السابق ج 1 ص149.

(107) نفسه،ج 1 ص: 41-57...

(108) وسمى نفسه في غلاف "الترياق" : (علامة الزمان وفريد عصره وأنامه)، وفي غلاف " تبيين الاشراف": (أهل دائرة الوسائل وقبلة توجه كل سائل)، وفي غلاف "سوق الأسرار" : (خاتمة المحققين وقدوة أهل الرسوخ واليقين)...!!!

(109) سورة الفاتحة، الآية: 4.

(110) البعقيلي، مقاصد الأسرار ج 1 ص: 17 .

(111) سورة البقرة، الآية: 2 .

(112) البعقيلي، مقاصد الأسرار ج1 ص:104 .

البعقيلي - مثل كثير من باطنية المتصوفة - بمسألة وحدة الوجود...، فالمخلوقات كلها من إنسان وحيوان وجماد هي صورة للخالق ومرآة له .

وتبعا لهذا الاعتقاد كثيرا ما وجدنا الحسن البعقيلي يورد في كتبه الأثر الموضوع (كنت كنزا لا أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق...) [113]، وظهر معتقده جليا عند كلامه عن قوله سبحانه : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا..** ﴾ [114]، حيث قال: «... فإذا تجرد العبد من هواه أمد بمعونة من ربه فينظر في الفاعل مفعوله فهو له مرآة للحقائق، وفي المفعول الفاعل فهو مرآة لربه، فإذا نظر في ربه بربه، نظر نفسه وغيره دفعة واحدة، فلا يشغله الحق عن الخلق ولا الخلق عن الحق، لأنه إنما ينظر بنور ربه فيه، فلا تكمل إلا معرفة من يرى بربه كل فرد من أفراد ملكه في كل لحظة، ويرى بربه ربه في كل ذرة من ذراته» [115].

المبحث الثالث

تقييم منهج الحسن البعقيلي في "مقاصد الأسرار"

ظهرت في البيئة الإسلامية منذ قرون عديدة بعض التآليف المنسوبة لأهل التصوف، ألفت فيما يدعى تفسيرا لكتاب الله عز وجل على حسب ما تقتضيه "أذواق" القوم، وحين نرجع اليوم إلى هذا الركام من"تفاسير المتصوفة" نجد قسما منه غارقا

---

(113) انظر على سبيل المثال مقاصد الأسرار ج 1ص: 14-16-70-45- والأثر ذكره الزركشي تـ794 هـ في "التذكرة" ص:136 رقم 20، قال : « قال بعض الحفاظ: ليس هذا كلام النبي ﷺ ولا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف»، وأورد ابن عراق الكناني تـ 963هـ في "تنزيه الشريعة" ج 1 ص 148، ونقل عن ابن تيمية قوله بأنه موضوع، وأورد الأثر أيضا عبد الرحمن بن عمر الشيباني تـ944 هـ في "تمييز الطيب من الخبيث" ص 142 رقم 1045..وهذا الأثر الموضوع وقع كثيرا في كتب المتصوفة الذين احتجوا به واصلوا بناء عليه نظرياتهم...

(114) سورة البقرة، الآية 29 .

(115) البعقيلي، مقاصد الأسرار، ج 1 ص:1125. كما يظهر لنا اعتقاد الحسن البعقيلي "بوحدة الوجود" في مقدمة حاشيته "الشرب الصافي.. على جواهر المعاني" ج 1 ص:3 حيث قال: « ...فغسلني الله من صور الأكوان الشاغلة عن حضرة الله الكريم، فرأيت الأكوان مفعولا واحدا كالميت لا يتحرك إلا باسم الله المحيي، ولا يسكن إلا بالله المميت، فاسترحت بالله مشاهدا الفاعل في كل مفعول..» وعبر عن نفس الاعتقاد ايضا في "سوق الاسرار الى حضرة الشاهد الستار " ص : 18.

هذا وعقيدة "وحدة الوجود" أخذها المتصوفة من الثرات الديني المجوسي واشتهر بها أولا ابن عربي الحاتمي تـ638 هـ صاحب "الفتوحات" الذي كان شيخ المتصوفة في عصره، ثم انتقلت بعده لتصبح مذهبا للكثير من الطرقيين.

في "مصطلحات" أهله حتى أن المطلع لا يجد له نسبا مع "علم التفسير"، وقسم ثان من هذا الركام حرص أصحابه على تتبع الآيات تفسيرا واستنباطا، لكنهم إذا صادفوا آية يمكن أن يدعم ظاهرها معتقدهم وطريقتهم وقفوا عندها...

والمعضلة الأساسية لهذا القسم الثاني هي بالأساس جنوحه مع ما يقتضيه المذهب والمعتقد وحمل ظاهر الألفاظ القرآنية على ذلك المعنى ولو بتكلف وتمحل لن يخفى على القارئ...

تبعا لما سبق وجدنا الدارسين المعاصرين لتاريخ التفسير يصنفون تفاسير المتصوفة إلى قسمين : تفسير باطني وتفسير إشاري .

وكتاب "مقاصد الأسرار والخفى" يدخل ضمن القسم الأول لسببين اثنين :

ما تضمنه هذا الكتاب من إغراق في معان واصطلاحات صوفية مصدرها ما يدعى من "الكشف" و "الفيوضات" فلا نجد في الكتاب غير ذلك .

السبب الثاني ما أعلنه مؤلف "المقاصد" في مختلف رسائله من أنه لا يعتد "بعلم الظاهر"، وافتخاره بأنه أوتي علم الباطن وباطن الباطن!!!

ولتقييم طريقة المؤلف في كتابه "مقاصد الأسرار" سنعرض في هذا المبحث للمصادر التي اعتمد عليها في "تفسيره" ثم بعد ذلك نتكلم عن موارد التفسير عنده لنخلص أخيرا للنظر في التفسير الباطني عند الحسن البعقيلي ونضعه في ميزان العلم وهدي النبوة .

المطلب الأول : مصادر البعقيلي في تفسير القرآن

أمهات مآخذ علم التفسير ثلاث : النقل عن النبي ﷺ ثم عن أعلام مفسري السلف، أو الأخذ بمطلق ما تدل عليه اللغة أو الرجوع إلى مقتضى معنى الكلام، فتؤول مصادر التفسير على تعددها إلى مصدرين رئيسين: صحيح المنقول فإن عدم أمكن الرجوع إلى صريح المعقول الذي يشهد له اللسان العربي المبين الذي أنزل به القرآن الكريم [116].

(116) انظر : ابن العربي المعافري، قانون التأويل ص : 659 - 660.

وحين نرجع إلى "مقاصد الأسرار" نجد للمؤلف رأيا خاصا يشذ به - هو وسائر الباطنية - عن جمهور المفسرين من المتقدمين والمتأخرين :

فبالنسبة لتفسير القرآن بالسنة رواية عن النبي ﷺ فلا عبرة عند البعقيلي إلا بما وصل له هو عن طريق "الكشف" الذي يعني أن ما يقوله إنما ينقله عنه ﷺ بدون واسطة.

ولإيضاح معتقد البعقيلي نورد هنا كلامه من رسالته "سوق الأسرار" حيث قال في الطريقة الاحمدية وفي مؤسسها التيجاني : «.. حتى ان صاحبها الذي كلفه صاحب النبوة بصرف همم الناس لها ما مات في حدود الثلاثين من القرن الثالث عشر حتى ترك من أصحابه عدد أصحاب صاحب الوحي مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا كلهم شاهدوا طلعة وجه من خليفة صاحب الشرع ﷺ لأن همهم في التوله به كالصحابة لا غير...، فصاحب الشرع هو القطب، والقطب الزماني نائب عنه، وهو فَانٍ فيه فلا يقول برأيه إلا ما قاله له صاحب الوحي...» (117).

أما بالنسبة لتفسير القرآن اعتمادا على علوم اللسان فإن الحسن البعقيلي يراه من علم الظاهر الذي يجب أن يزهد فيه المتصوفة طالما أنهم آثروا أنفسهم بما اعتبروه "علم الباطن"؛ بل إن ما سوى الصوفية - من أهل العلم - هم عند البعقيلي "علماء سذج"، وفي ذلك قال ضمن مقدمة حاشيته على "جواهر المعاني": "فاعلم أن المقصود في الطرق وتمليك النفوس للشيوخ هو متابعة رسول اللّه ﷺ ظاهرا وباطنا وباطن باطن، فالعلماء يعلمون علم الظاهر... إلا أنهم لا يرتقون مادامو خداما للشريعة إلى علم الباطن فوقهم، وإن ارتقى بعضهم صار صوفيا لا عالما ساذجا على الاصطلاح، فخدام الطريقة التي هي تحلية الباطن بصفاته ﷺ هم الصوفية والحكماء والقوم.." (118).

على أنه مما ينبغي التنبيه إليه أن مؤلف "مقاصد الأسرار" ضمن كتابه الكثير من الآثار الباطلة من أخبار بني إسرائيل وقصص الكذابين، ورغم أنه في مقدمة الجزء

(117) *البعقيلي، سوق الاسرار، ص : 64.*
(118) *البعقيلي، الشرب الصافي على جواهر المعاني، ج 1 ص: 11 - 12.*

الثاني من "المقاصد" شدد النكير على رواية هذه الأخبار الواهية، إلا أنَّهُ رجع إليها بخاصة حينما تؤيد مذهبه [119].

المطلب الثاني : موارد البعقيلي في التفسير

يمكن إجمال الموارد التي اعتمد عليها الحسن البعقيلي في نوعين :

أولا : موارد رئيسية وهي كتب المتصوفة والطرقيين التي اعتمدها وإن كان من النادر أن يصرح بذلك لأنه يعتبر "تفسيره" نوعا من "الكشف" الذي يستمده من النبي ﷺ.

ومن هذه الموارد الرئيسية :

1- تراث "شيخه" علي بن حرازم برادة تلميذ أحمد التيجاني ومؤلف "جواهر المعاني" الذي يمكن اعتباره أهم كتاب عند أتباع الطريقة الأحمدية [120]...

فمن "جواهر المعاني" أشرب البعقيلي عقيدته وانغمس "في بحار حقائق وأسرار القطب المكتوم ممد الأولياء من النشأة إلى الأبد... أحمد بن محمد التيجاني..."[121]، وبلغ من أهمية هذا الكتاب عند الحسن البعقيلي أن خصه بالشرح، وعمد إلى طبع هذا الشرح (الحاشية) في عام 1353 هـ أي السنة التي ابتدأ فيها كتابة "مقاصد الأسرار".

ولا يكاد يخفى على القارئ أثر هذه الحاشية في توجيه البعقيلي حين حرر "مقاصد الأسرار"، بل إن المطلع على الكتابين يخلص إلى نتيجة هي أن المؤلف أراد أن يضع لاتباع الطريقة الأحمدية "أصلا" يعتمدونه وتفسيرا يساير أذواق أئمتهم بخاصة بعد أن وجهت "لشيخه" علي بن حرازم تهمة تلفيق وانتحال ما كتبه في "جواهر المعاني".. [122].

---

(119) يمكن الوقوف على نماذج من الإسرائيليات والموضوعات عند المؤلف في مقاصد الأسرار ج 1 ص : 51- 52، ج2 ص : 213.

(120) انظر كلام البعقيلي في مقدمة الشرب الصافي ج1 ص : 3.

(121) المرجع السابق ج1 ص : 2.

(122) نفس المرجع ج 1 ص : 7- 8.

2- وتأتي في الدرجة الثانية - بعد كتاب علي بن حرازم - بعض كتب ورسائل المتصوفة «إذ أن أذواق العارفين بحر واحد ويغترفون من عين واحدة» - على حسب تعبير المؤلف - ومن "العارفين" الذين رجع البعقيلي إلى آثارهم وقليلا ما يذكر ذلك :

– تقي الدين السبكي ت 756هـ الذي قال عنه المؤلف في "مقاصد الأسرار": « فهو إمام الإسلام وقوله دائما هو الذي يناسب أذواقنا ونشاهد نوره في كشفنا ووجداننا »[123].

– وبعده يأتي القزويني الذي اقتبس المؤلف من كلامه في "سراج العقول" [124].

ثم الشيخ عبد العزيز الدريني [125].

ثانيا : موارد تكميلية :

وتشمل بعض مقالات علم الكلام التي رجع إليها في المسائل المتصلة بقضايا الصفات [126].

كما تشمل جانبا من التراث المتعلق بالفروع وأحكام العبادات حيث خصص المؤلف قسما من الجزء الثاني لهذه المسائل [127].

وتجب الإشارة إلى أن الحسن البعقيلي حينما يقتبس من التراث الكلامي والفقهي لا يذكر موارده التي اعتمدها رغم قلة رجوعه إلى هذا التراث .

فيبقى القول بأن الموارد الرئيسية المعتمدة في "مقاصد الأسرار" هي كتب التصوف والطرقية، وهذا يفرضه كون المؤلف إنما قصد وضع تفسير يرجع إليه فقراء الطريقة الأحمدية.

---

(123) البعقيلي، مقاصد الأسرار ج2 ص5.
(124) المرجع السابق ج 2 ص : 6.
(125) نفس المرجع ج2 ص :7 .
(126) انظر على سبيل المثال : مقاصد الأسرار ج 1 ص : 61.
(127) انظر المرجع السابق ج2 ص : 69 وما بعدها .

المطلب الثالث : التفسير الباطني عند البعقيلي في ميزان العلم

يظهر أن الزوبعة التي واجهت "الطريقة الأحمدية" حين بدأت انتشارها بين الناس دفعت شيوخ هذه الطريقة إلى البحث عن أصول لدعوتهم في القرآن حتى يستطيعوا تدعيم معتقداتهم التي يدعون الناس إليها... على أن الوصول إلى هذه الغاية جعل الأحمديين في دأب مستمر لتأصيل معتقداتهم الطرقية انطلاقا من كتاب الله ولو أدى بهم الأمر إلى التكلف...

ومن بين سائر شيوخ "الأحمدية" انفرد الحسن البعقيلي "بكده" المتواصل لدمج معتقدات مؤسسي الطريقة (أحمد التيجاني وعلي بن حرازم) ضمن هدي القرآن الكريم حتى وجدناه يقول : « ... فالعلم كله في القرآن، ونحن معشر التيجانيين شربنا القرآن فصار لنا ذوقا ...» [128].

لكن كيف يتسنى للبعقيلي دمج معتقدات الأحمديين في القرآن ؟

اعتبارا لكون التفسير علما له مصادره وقواعده وآدابه، وتبعا لكون هذه الأصول هي في جوهرها ضوابط علمية منهجية تحكم العلم كسائر العلوم...

ورغبة في تجاوز هذه الضوابط العلمية التي استخرجها أئمة التفسير من هدي القرآن والسنة..

وجدنا الطوائف الصوفية ومن بينهم الأحمدية يدعون إلى إسقاط هذه الضوابط المنهجية ليصبح الكلام في كتاب الله مكفولا لكل من يدعي أن له "ذوقا" أو "كشفا"!!

لكن الذي أضافه الأحمديون في مقالاتهم هو الزعم بأن "أذواقهم" هي نوع من أنواع الوحي، وأن شيوخهم يتلقون "الكشف" منه ﷺ بدون واسطة..

وفي هذا السياق وجدنا الحسن البعقيلي يدعي في حاشيته على "جواهر المعاني" :

أنه رأى رؤيا - يوم كان عمره أربع عشرة سنة - هي من أقسام الوحي وذلك حين كان يقرأ القرآن في لوح صباحا وهو جالس نائم على اللوح وجبهته عليه في بعقيلة[129]، ويذكر في نفس الكتاب أن ما جاء به أحمد التيجاني « إن هو إلا وحي

---

(128) البعقيلي، ترياق من فسد قلبه .. ص : 42.

(129) البعقيلي، الشرب الصافي على جواهر المعاني ج1 ص : 5.

يوحى» [130]، ويذكر في رسالة "رفع الخلاف والغمة" رؤيا أخرى له، أنه جلس بزاوية المواسين في مراكش بين التيجاني والرسول ﷺ وقد أمره عليه الصلاة والسلام بتفسير ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ [131] [132]...

وتبعا لما يقتضيه هذا الاعتقاد من خلط بين مرتبة النبوة والرسالة وبين ما يصطلح عليه المتصوفة عامة والأحمديون خاصة "بالقطب" و "العارف"...

وجدنا البعقيلي في "مقاصد الأسرار" يدعي أن الوحي إلى الرسول# هو من جنس ما يصطلح عليه الطرقيون "بالكشف"؛ قال في تفسير قوله تعالى (ذلك الكتاب) - في أول سورة البقرة - «... وإنما قال ذلك للغيب إشارة إلى الجمع بين ما رآه وأعلمه له ربه قبل نزول اللفظ، بل ارتسم في جواهر عقله بالكشف والتعليم اللدني بلا واسطة...»[133].

ثم وجدناه في أول الجزء الثاني من "مقاصد الأسرار" يعتبر الأنبياء والأقطاب في مرتبة واحدة سماها "الصديقية العظمى"، وذكر أن الأقطاب - وهو نفسه واحد منهم - متصلون بمرتبة الأنبياء [134].

ثم إن هؤلاء الأقطاب إنما يتلقون "الكشف" من الفيوضات التي تأتيهم بعد كل فتح[135]، وهذه "الفيوضات" هي من "علم باطن الباطن" الذي اختص به الأحمديون دون غيرهم من المتصوفة كما سبق ...

ومن هذا العلم المخصوص وجدنا البعقيلي يضفي على آيات القرآن معاني ودلالات غريبة :

فقوله تعالى : ﴿ وقل رب زدني علما ﴾[136]، معناه "رب زدني فيك تحيرا..."[137].

---

(130) المرجع السابق ج1 ص : 197.
(131) سورة فاطر، الآية : 32.
(132) البعقيلي، رفع الخلاف والغمة، ص : 97.
(133) البعقيلي، مقاصد الأسرار، ج1 ص : 58.
(134) المرجع السابق ج2 ص : 6.
(135) نفس المرجع ج1 ص : 125.
(136) سورة طه، الآية : 114.
(137) البعقيلي، مقاصد الأسرار ج1 ص : 130.

وقوله تعالى : ﴿ **ووجدك ضالا فهدى** ﴾ [138]، معناه " متحيرا فهداك بكمال التحير..."[139].

وقوله تعالى : ﴿ **...أم كنت من العالين** ﴾ [140]، معناه "المهيمين الذين لم يكلفوا لهيامهم بربهم، فليس هو منهم.."[141].

وقوله تعالى : ﴿ **ويستغفرون لمن في الأرض** ﴾ [142]، معناه "... الانغماس في مشاهدة الحقائق، ومعاينة سيوف الجلال وصواعق بروق ورعود الجمال..."[143].

والتفسير الباطني عموما كما تدل على ذلك النصوص السابقة ما هو إلا محاولات للتسور على تفسير كتاب اللّه لينطق بأهواء المنسوبين إلى التصوف.

أما ما يدعيه القوم من مكاشفات يرفعونها إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فما هي إلا حيل للتلبيس على الاتباع المنقادين يصدونهم بها عن سماع الحق ويصرفونهم بها عن تصحيح المعتقد...

وقد بلغ الجهل بطائفة من الأتباع أن اعتقدوا في شيوخهم ما لا يبلغه حتى الرسل عليهم الصلاة والسلام رغم سخافة ما يدعونه أمامهم، وقد لبسوا دعاويهم بما ظنوا أنه يجعلهم بمفازة من السؤال.

وللّه در ابن العربي المعافري تـ 543 هـ حين علق على مذهب هؤلاء بقوله :

« وأما علم الباطن، فقد ضلت فيه الأمم فأوغدوا في هذا الباب وأوعدوا حتى كفرت منهم طائفة لا يحكى قولها الآن لسخافته. وتسورت عليه أخرى، وادعى كل واحد منهم أن علمه في كتاب اللّه، ليحرص عليه من يطلبه» [144].

---

(138) سورة الضحى، الآية :7.
(139) البقيلي، المرجع السابق ج1 ص : 130.
(140) سورة ص، الآية 75.
(141) البقيلي، المرجع السابق ج 1ص : 157.
(142) سورة الشورى الآية : 5.
(143) البقيلي، مقاصد الأسرار ج 2 ص : 5.
(144) ابن العربي المعافري، قانون التأويل ص : 518.

ورحم اللّه ابن خلدون تـ 808 هـ حين علق على ما يدعيه القوم من "الكشف" الذي يعتبرونه أساس علمهم بالباطن قائلا بأن «... الكشف قد يحصل لصاب الجوع والخلوة وإن لم تكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين» [145] ثم قال أيضا : « ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة... وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإلهية الأئمة - مذهبا لم يعرف لأولهم - فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم، وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب وهو رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه اللّه ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان.. وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي...» [146].

خاتمة الدراسة

كان هذا البحث مدخلا لدراسة تاريخ علم تفسير القرآن في سوس خلال القرون المتأخرة التي شهدت ازدهار وانتشار التعليم الأهلي الإسلامي في المنطقة قبل أن تبتدئ مرحلة أفول هذا النظام التعليمي خلال العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر للهجرة.

ومما خلصت إليه هذه الدراسة :

أولا : محدودية إسهام ومشاركة شيوخ العلم بسوس في هذا الفن تأليفا وتدريسا، يشهد لذلك تراثهم العلمي الذي وصلنا بعضه كاملا وبعضه لا نعرف منه إلا ما تناقلته بعض كتب التاريخ.

ثانيا : إن تحصيل العلم بسوس عامة اقترن بانتماء طلبته لمختلف الدعوات الطرقية، وربما صار عرفا عند الناس أن التحصيل العلمي يكسب علم الشريعة والارتباط بإحدى الطرق الصوفية يورث علم الحقيقة (أو الإيمان) من ثم وجدنا الكثير من شيوخ العلم يسعون إلى الجمع بين الأمرين.

---

(145) ابن خلدون، المقدمة ص : 520.

(146) المرجع السابق، ص : 523. وما زال العلماء قديما وحديثا يحذرون الناس من مهاوي الطرقية والباطنية، وقد توسع في الرد عليهم ابن الجوزي تـ 597هـ في "تلبيس إبليس" وابن تيمية تـ 728هـ في اكثر من كتاب أهمها في الموضوع رسالة "الفرقان" والشاطبي تـ 790هـ في "الاعتصام" وادريس بن بيدكين التركهاني - من أعلام القرن لسابع - في كتاب "اللمع في الحوادث والبدع"...

ثالثا : على قلة التفاسير التي ألفها السوسيون، فإن غالبيتها لم يكتب لها أن تنشر لانعدام وسائل الطبع بالرغم من تطلع بعض أهل سوس للإسهام في عالم الطباعة خلال منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، لكن هذه الهمة السامية ما لبثت أن أجهضت كما نعلم حين صودرت من القاضي الطيب الروداني مطبعته الحجرية عام 1281 هـ.

رابعا : إن أشهر "تفسير" ألفه أحد السوسيين ووجد طريقه ممهدة للنشر هو "مقاصد الأسرار" للحسن البعقيلي الذي استفاد من إقامته بالدار البيضاء في النصف الأول من القرن العشرين، فاتجهت همته لامتلاك مطبعة أخرج فيها الكثير من مؤلفاته ومؤلفات غيره من السوسيين، فطبع بالإضافة إلى كتبه كتاب "الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة" وكتاب "طبقات الحضيكي" وغيرها من المنشورات الصادرة عن المطبعة العربية بدرب غلف قبل حوالي سبعة عقود.

خامسا : إن تفسير: "مقاصد الأسرار" الذي اهتمت به هذه الدراسة لا يمثل على الإطلاق إسهامات أهل العلم بسوس في مجال تفسير القرآن، ولو أردنا الإنصاف لقلنا : إن هذا التأليف - الذي لم يتمه صاحبه - لا يمثل إلا الاتجاه الذي سلكته الطائفة الأحمدية في فهم كتاب الله وتأويله...

وأخيرا فإن هذه الدراسة ليست إلا لبنة صغيرة في سياق دراسة التراث السوسي المتعلق بتفسير القرآن، والأمل معقود على أن تظهر هناك أعمال علمية متكاملة تبحث في هذا الجانب ولعلها تبرز من هذا التراث ما لا نعرفه حتى الساعة.

وختاما نسأل الله أن يلهمنا من أمرنا رشدا، وأن ييسر لكاتبه - عفا الله تعالى عنه - من العزم وسعة الوقت ما ينجز فيه الحلقة الثانية لهذه الدراسة عن "الشيخ عبد الرحمن الجشتمي وكتابه إعراب القرآن" والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم.

لائحة لأهم مراجع الدراسة

- عبد الرحمن التمنارتي، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، مصورة عن مخطوط كلية الآداب الرباط.
- ابراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، دار المعرفة بيروت.
- امحمد آيت بومهاوت، منار السعود عن تفراوت الملود ومدرستها العتقية، الطبعة الأولى 1414 هـ، مطبعة النجاح الدار البيضاء.
- الحسن بن محمد البعقيلي تبيين الاشراف أهل دائرة الوسائل وقبلة توجه كل سائل، الطبعة الأولى 1358هـ، المطبعة العربية الدار البيضاء.
- ترياق من فسد قلبه ومزاجه، المطبعة العربية الدار البيضاء.
- الإشفاق على مؤلف الاعتصام ومعه رسالة إلى الولدان الطبعة الأولى 1357هـ، المطبعة العربية الدار البيضاء.
- رفع الخلاف والغمة، الطبعة الأولى 1354هـ المطبعة العربية...
- سوق الأسرار إلى حضرة الشاهد الستار، الطبعة الأولى 1353هـ، المطبعة العربية الدار البيضاء.
- الشرب الصافي من الكرم الكافي على جواهر المعاني، الطبعة الأولى 1353هـ، المطبعة العربية الدار البيضاء.
- مقاصد الأسرار والخفى، وجواهر المرضية والكاملة في نهاية الأخفى، الطبعة الأولى 1354هـ، المطبعة العربية الدار البيضاء.
- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الجيل بيروت.
- عبد الله بن الصديق، بدع التفاسير، الطبعة الثانية 1406هـ، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء.

- محمد الاكراري، روضة الأفنان في وفيات الأعيان وأخبار العين... الطبعة الأولى 1998م، منشورات كلية الآداب أكادير، باعتناء حمدي ونوش.

- محمد المختار السوسي، خلال جزولة، المطبعة المهدية تطوان.

- سوس العالمة، مطبعة فضالة المحمدية 1380هـ.

- المعسول، مطبعة النجاح الدار البيضاء.

- محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري، قانون التأويل، الطبعة الأولى 1406هـ، دار القبلة جدة، بتحقيق محمد السليماني.

- يوسف بن عبد البر النمري، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية بيروت.

المقالات والدراسات

- ابراهيم أبو الصواب، دراسة بيبليوغرافية لبعض مخطوطات المكتبات العامة والخاصة بتارودانت، ضمن ندوة: "تارودانت حاضرة سوس"، منشورات كلية الآداب أكادير 1993م.

- ابراهيم الوافي، درس التفسير بالمدارس.. العلمية بسوس، ضمن ندوة: "المدارس العلمية العتيقة" منشورات جمعية أدوز، الطبعة الأولى 1416هـ.

- محمد المنوني ـ رحمه الله ـ الخزائن العلمية بمدينة تارودانت وما إليها، مجلة دعوة الحق العدد 280 ـ صفر 1411هـ، ص : 58-62.

- محمد المنوني، المؤسسات التعليمية بسوس وخصائص المدرسة العتيقة بالمنطقة، مجلة المناهل، العدد 34، ذو القعدة 1406هـ، ص: 35-52.

- مصطفى المسلوتي، الحركة العلمية في الجامع الكبير بمدينة تارودانت خلال القرنين العاشر والحادي عشر، مجلة دعوة الحق العدد 325، رمضان 1417هـ، ص: 87-97.